باب ما جاء فيمن تعفف في محبته ورعى عقود عهود مودته

وما وجدنا أحد من العرب يفعل ذلك ولا صمد نحوه، وقد كان الواحد منهم يعشق من أول دهره إلى آخره، لا يحاول فسقًا ولا يقرب رفثًا ولم يكن لهم مراد إلا في النظر ولا حظَّ في غير الاجتماع والمؤانسة والحديث والشعر، كما قال الفرزدق:

وجدت الحب لا يشفيه إلا ... لقاء يقتل العلل النهالا
أحب من النساء وهن شتى ... حديث النزر والحدق الكلالا
مواقع للحرام وكل نحس ... وتبدل ما يكون لها حلالا

وكان الواحد منهم إذا تعلق خلة لم يفارقها حتى الممات، ولم يشغل قلبه بغيرها ولم يهم بالسلو عنها وقصر طرفه عن من سواها، وكذلك هي أيضًا كانت له بتلك المنزلة، فأيهما هلك قبل صاحبه قتل الآخر نفسه في أثره أو عاش حافظًا لوده قائمًا بعهده لا ينسى ذكره ولا يصل غيره؛ فاستحسن الناس الملل والاستبدال والغدر الانتقال؛ وصار أشدهم ظرفًا وأحسنهم إلفًا بتعشق السنين الكثيرة والدهور الطويلة ويتوهم بفعله أنه عاشق، فإذا فقد حبيبه يومًا واحدًا استبدل به سواه، وينشدون في ذلك:

افخر بآخر من بليت بحبه ... لا خير في حب الحبيب الأول
أتشك في أن النبي محمدًا ... ساد البرية وهو آخر مرسل

وأنا أبرأ من الله أن يكون هذا من شعر ظريف أو من فعل حصيف؛ ولكن قد أحسن أبو تمام الطائي حيث يقول:

البين جر على نقيع الحنظل ... والبين أثكلني وإن لم أثكل
ما حسرتي إن كدت أقضي إنما ... خسرات نفسي إنني لم أفعل
نقِّل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبدًا لأول منزل

على أنه ليس التنقل من حبيب أول إلى حبيب ثان بحسن؛ وإنما الحب ما أقام عليه القلب فلم يجد التخلص منه إلى غيره كما قال جرير:

أخالد قد هويتك بعد هند ... فشيبني الخوالد والهنود
هوى بتهامة وهوى بنجد ... فثبلني التهائم والنجود

ولا كقوله أيضًا:

أحب ثرى نجد وبالغور حاجة ... فغار الهوى يا عبد قيس وانجدا

ولا كقول الآخر:

إني سأبدي الحب فيما أبدي ... لي شجنان شجن بنجد
وشجن لي ببلاد الهند

ولا كقول الآخر:

هوى بالغور لي وهوى بنجد ... فما أدري أانجد أم أغور
بكل حاجة وهوى مقيم ... بقلبك قد تضمنه الضمير
بشرقي العراق بباب عمرو ... وبالغورين زينت والقدور

وهذا والله من ألفاظ الشعر اسمج جدًّا، وقد كذب هؤلاء وادعوا وجدًا وهل يجتمع وجدان في موضع؟! ولكن قد أحسن جميل حيث يقول:

وقلت لنسوان تعرضن دونها إليكن إني غير كن أريد

وحيث قال أيضًا:

وكم من بديل قد وجدنا وطرفة فتأبى على النفس تلك الطرائف

فهذا هو الصادق الهوى الخالص الوفاء، لا جرير وصاحبه ولا الذي يقول:

أرى ذا فأهواه وأبصر غيره فأترك ذا ثم أستبد بذا عشقا

ثمانون لي في كل يوم أحبهم وما في فؤادي واحد منهم يبقى

فقبح الله هذا اللفظ لفظًا، ولا أعطى قائله حظًا؛ فليس من شعر وامق بل هو من فعل مماذق ولا والله ما التنقل من شأن الأدباء ولا الاستبدال من فعل الظرفاء؛ وإنما الهوى ما حسن سريرته وهيهات أن ذوو الوداد الخالص والصفاء الدائم والحب اللازم وذوو الحفاظ ورعاة العهود والمتمسكون بالوفاء والراغبون في صحيح الإخاء إليك، فقد تنقضت وثائق الحب وانقسمت عري الهوى وتقطعت أسباب العشق وتكدر صادفي المودة، والناس كما قال الشاعر:

قل الثقات فما أدري بمن أثق لم يبق في الناس إلا الزور والملق

وأن الغدر في النساء طبع، والمطل منهن غريزة، وهو في النساء أكثر منه في الرجال ؛فقد أنشدني بعض الأدباء:

وكنا جعلنا الله شاهد بيننا وفي الله بين المسلمين شهيد

فخست بعهد الله لو تعلمينه وفيكن من ليست لهن عهود

واعلم أنهن لا عهود لهن ولا وفاء لحبهن ولا دوام لودهن، وإن أقبح ما روي من غدرهن ما حدثنيه ابن أبي خيثمة عن شيخه أن عاتكة بنت زيد بن عمرو بن

نفيل كانت عند ابن أبي بكر الصديق رضي الله عنه فأحبها حبًّا شديدًا شغلته عن تجارته فأمره أبو بكر فطلقها، ثم اطلع عليه وهو يقول:

فلم أر مثلي طلق اليوم مثلها ... ولا مثلها في غير جرم تطلق
لها خلق سهل وحسن ومنصب ... وخلق سوى ما يُعاب ومنطق
أعاتك قلبي كل يوم وليلة ... إليك بما تخفي النفوس معلق
أعاتك لا أنساك ما حجَّ راكب ... وما لاح نجم في السماء محلق

فرقَّ عليه أبو بكر وأمره فراجعها؛ فقال لما رجعت إليه:

أعاتك قد طُلِّقت من غير بغضة ... وروجعت للأمر الذي هو كائن
كذلك أمر الله غاد ورائح ... على الناس فيه ألفة وتباين
وما زال قلبي للتفرق بائن ... فقلبي لما قد قرَّب الله ساكن
ليهنك أني لم أجد منك سخطه ... وأنك قد جلت عليك المحاسن
وأنكم ممن زين الله أمرها ... وليس لما قد زين الله شائن

فلم تزل عنده حتى قتل يوم الطائف؛ رمي بسهم فمات فجزعت عليه جزعًا شديدًا، وقالت ترثيه:

ألا يت لا تنفك عيني حزينة ... عليك ولا ينفك جلدي أغبرا
فلله عينًا من رأى مثله فتى ... أشد وأحمى في الهياج وأصبرا
إذا شرعت فيه الأسنة خاضها ... إلى الموت حتى يترك الرمح أشقرا

ثم خطبها عمر بن الخطاب فتزوجها فأولم عليها ودعا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، قال: فقال له علي بن أبي طالب: ائذن لي لأدخل رأسي إلى عاتكة فأكلمها. قال: افعل فأدخل رأسه إليها فقال: يا عدية نفسها أهكذا كان قولك؟:

آليت لا تفنك عيني سخينة عليك ولا ينفك جلدي أغبرا

فبكت فقال له عمر: ما دعاك إلى هذا يا أبا الحسن، فغفر الله لك إنهن يفعلن هذا. قال: أردت أن أعلمها أنها لا عهد لهنَّ فمكثت عنده حتى قتل عنها قتله أبو لؤلؤة فقالت ترثيه:

عين جودي بعبرة ونحيب لا تملي على الأمير النجيب
فجعتني المنون بالفارس المعـ ـلم يوم الهياج والتأنيب
عصمة الله والمعين على الدهـ ـر غياث الملهوف والمكروب
قل لأهل البأساء والضر موتوا قد سقته المنون أم الرقوب

ثم تزوجها الزبير بن العوام، فمكثت عنده حتى قتل عنها منصرفًا من الجمل بوادي السباع؛ قتله بن جرموز فرثته وفيه تقول:

يوم اللقاء وكان غير معرد غدر ابن جرموز بفارس بهمة
لا طائشًا زغب الجنان ولا اليد يا عمرو لو نبهته لوجدته
ثكلتك أمك إن قتلت لمسلمًا حلأت عليك عقوبة المتعمد

فخطبها علي بن أبي طالب فبعثت إليه: إني لأضن بك عن القتل، وإنما استحيت فامتنعت وقد تزوجت باثنين من بعد قولها:

آليت لا تنفك عيني سخينة عليك ولا ينفك جلدي أغبرا

قال: وحدثني أبو الفضل الربعي قال: حدثني أبو ربيعة العامري الكوفي قال: حدثني علي بن عمرو الأنصاري قال: دخلت المدلة البكرية -زوجة المغيرة بن أبي ضمام البكري، وكان يحبها حبًا شديدًا- على المغيرة بن أبي عقيل تخاصم في بعض أمورها فلما خرجت المدلة قال: أنت الذي يقول فيك المعذل:

قـــل للمدلـــة طـــال ذا التعديـــد ... فـــدع التعلـــل والمطـــال قلـــيلا
ويزيـــدها حـــلي النســـاء ملاحـــة ... ويزيـــد ذلـــك بعـــضهن خبـــولا

قالت: نعم. قال: فلم تزوجتِ بعده؟ أف لكنَّ. قالت: أتنصف ما كنت بديًا وما كنت بنيًا فضحك منها وأمرها بالانصراف.

وروي أن امرأة من نساء العرب تزوجت رجلًا من خثعم فوجد كل واحد منهما بصاحبه وجدًا شديدًا وأنهما تحالفا أن لا يتزوج أحدهما بعد صاحبه؛ فمات قبلها فتزوجت فلامها بعض أهلها، وقالوا: أين ما كنت تجدين به؟ فأنشأت تقول:

وقـــد كـــان حبـــي ذاك حبًّـــا مبرحـــا ... وحبـــي لـــذا إذ مـــات ذاك شـــديد
وكـــان هـــواي عنـــد ذاك صـــبابة ... وحبـــي لـــذا طـــول الحيـــاة يزيـــد
فلـــما مـــضى عـــادت لهـــذا مـــودتي ... كـــذاك الهـــوى بعـــد الـــذهاب يعـــود

وقال صالح بن حسان -لما احتضر حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه-: كانت فاطمة بنت حسن بن علي جالسة عند رأسه تبكي فقال: ما يبكيك؟ قالت: على فراقك ابن عم. قال: مه ما صنعت فإياك أن تنكحي عبد الله بن عمرو بن عثمان، وقد علم أن أحدًا لا يجترئ على خطبتها غيره، قالت: ما كنت لأفعل. وهلك وله منها: عبد الله بن حسن وإبراهيم بن حسن، فلما انقضت عدَّتها دعت مولاة لها يقال لها: زير فقالت: ايتي عبد الله بن عمرو فقولي له: أعرنا بغلتك الشهباء برحالتها فإني قد أردت أن أسير إلى بعض أموال ولدي بالعالية فأتته فقال: يا زير، لو كان لي إلى مولاتك سبيل ارحلوا لها البغلة فلما جاءت قالت: هل لقيته؟ قالت: نعم. قالت: فما قال لك؟ قالت: قال لو كان لي إلى مولاتك سبيل قالت: ويلك وأين المذهب عنه؟ فرجعت زير فدخلت عليه وأعلمته فأرسل إليها؛ فخطبها فتزوجته وولدت له الهيثم ومحمد ورقية، وكان لها من الحسن ثلاثة ومن عبد الله ثلاثة.

وروي عن سماك بن حرب أنه قال: كانت العرب تقول لم تنه امرأة قط عن رجل إلا تزوجته وقال ابن عباس: حدثني شيخ من بني ضبة قال: كان رجل منا ظريفًا شريعًا احتضر فبينا هو يجود بنفسه، وبني له يسمى معمر يدبُّ بين يديه فنظر إليه وبكى ثم التفت إلى امرأته فقال:

يا هذه إني لاخشى أن أموت فتنكحي ... ويُقذف في أيدي المراضع معمر

فحالت ستور بعده ووليدة ... وأشغلهم عنه نحور ومجمر

قالت: ما كنت فاعلة قال الشيخ: فوالله ما انقضت عنها عدتها حتى تزوجت بشاب من الحي، ورأيت معمرًا كما وصف قال: وأنشدني بعض الشعَراء:

إن من غرَّه النساء بشيء ... بعد هند لجاهل مغرور

كل أنثى وإن بدا لك منها ... غاية الحب حبها خيتعور

وإن الوفاء فيهن عزيز غير موجود، ووالله لئن كان كذاك وعرفن بذاك ففي الرجال من هو أكثر منهن غدرًا وأسرع منهن خترًا وأسمح منهن تنقلًا وأقبح منهن تبدلا، خُبرت عن الأصمعي قال: كان رجل من الأعراب يظهر الوجد لامرأته والحب لها وكانت تظهر له مثل ذلك، فتعاهد ألا يتزوج منهما الباقي بعد صاحبه؛ فاخترمت المرأة قبله فخطب الرجل امرأة من يومه ذلك، فقيل له: أتخطب بعد يمينك وعهدك؟ فقال:

خطبت كما لو كنت قد مت قبلها ... لكانت بلا شك لأول خاطب

إذا غاب بعل كان بعل مكانه ... ولا بد من آتٍ وآخر ذاهب

وخبرت أن بعض ولاة العهود كانت له جارية فكان يظهر الميل إليها والاستهتار بحبها، وكان يقول لها: إذا أفضت الخلافة إليه أن يفضلها على نسائه

ويقدمها في البر والكرامة عليهن؛ فلما بلغ من ذلك أمله جفاها وأطرحها وقلاها، فكتبت إليه:

أيـــن ذاك الـــود والقبـــول وأيـــن مـــا كنـــت لنـــا تقـــول

فكتب إليها:

قـــد قـــال في أشـــعاره لبيـــد يـــا حبـــذا الطـــارف والتليـــد

فعلمت أنه لا حاجة له فيها، فهذا في القبح يتجاوز غدر النساء ويعلو على كثير من جنايات الإماء، وإنهن والله على ما فيهن من الغدر والخيانة والشر لربما عشقن فاشتهرن ووفين فأحسن، وإن من حسن ما بلغ من وفائهن ما صنعته ابنة الفرافصة مع عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ وكان من قصتها أن سعيد بن العاص تزوج هند ابنة الفرافصة بن الأحوص بن عمرو بن ثعلبة بن الحرث بن حصن بن ضمضم بن عدي بن جناب الكلبية، فبلغ ذلك عثمان بن عفان فكتب إلى سعيد: أما بعد، فقد بلغني أنك تزوجت امرأة من كلب، فاكتب إليَّ بنسبها وجمالها فكتب إليه سعيد: أما بعد، أما نسبها فهي ابنة الفرافصة بن الأحوص، وأما جمالها فبيضاء مديدة والسلام. فكتب إليه عثمان إن كانت لها أخت فزوجنيها؛ فبعث سعيد إلى أبيها فخطب إليه إحدى بناته على عثمان فقال الفرافصة لابن له يدعى ضبا -وكان قد أسلم وأبوه نصراني-: يا بني، زوِّج عثمان بن عفان أختك فزوجه، فلما أراد حملها قال لها أبوها: أي بنية، إنك ستقدمين على نساء قريش وهن أقدر على الطيب منك، فاحفظي عني اثنتين؛ تكحلي وتطيبي بالماء حتى تكون ريحك كريح الشباب المطهرين، فلما حملت شقَّ عليها الغربة واشتاقت إلى أهلها فقالت:

ألـــست تـــرى يـــا ضـــب بـــالله أنـــني مـــصاحبة نحـــو المدينـــة أركبـــا
إذا قطعـــوا خرقًـــا تخـــب ركابهـــا كـــما زعزعـــت ريـــح يراعـــا مقـــصبًا

لقد كان في أبناء حصن بن ضمضم لك الويل ما يغني الخباء لمطنبا

فلما قدمت على عثمان بن عفان قعد على سرير وألقى لها سريرًا حيا له فجلست عليه ورفع العمامة عن رأسه فبدا الصلع فقال: يا ابنة الفرافصة، لا يهولنك ما ترين من الصلع، فإن من ورائه ما تحبين. قالت: إني لمن نسوة أحب بعولتهن إليهن الكهول البيض السادة. فقال: إما أن تقومين إلي وأما أن أقوم إليك. فقالت ما تجشمت من كراهة جنبات السماوة أبعد مما بيني وبينك، ثم قامت إليه فجلست إلى جانبه فمسح رأسها ودعا بالبركة وقال: اطرحي عنك خمارك فطرحته. ثم قال: اخلعي درعك فخلعته، ثم قال: حلي إزارك فقالت: ذاك إليك. فحله فكانت من أحظى نسائه عنده فلما كان يوم الدار أهوى رجل إلى عثمان بالسيف فألقت بنفسها عليه؛ فضرب عجيزتها وكانت من أعظم النساء عجيزة فقالت: أشهد أنك فاسق لم تأت غضبًا لله ولا لرسوله فأهوى إليها بالسيف ليضربها فاتقته بيدها فقطع إصبعين من أصابعها، فلما قُتل عثمان قالت فيه ترثيه:

ألا إن خير الناس بعد نبيه قتيل التجوبي الذي جاء من مصر

ومالي لي أبكي وتبكي قرابتي وقد ذهبت عنا فصول أبي عمر

فعبث معاوية بعد ذلك يخطبها فنزعت ثنيتها العليا، وقالت: أذات عروس هذا؟ فهذا والله حسن من وفاء النساء، وقد تقدم ذكر جماعة من أهل الوفاء اللاتي قتلن أنفسهن في أثر متعشقيهن أغنى عن كثير من أخبارهن، وقد روي أيضًا عن أبي حدرد الأسملي قال: نشأ فينا غلام يقال له: عبد الله بن علقمة فعلق جارية منا يقال لها: حبيشة لم تكن من فخذه وكان يتحدث إليها كثيرًا فخرج ذات يوم من عندها فنظر إلى ظبية على رابية فالتفت إلى أمه وهو يقول:

يا أمي خبريني غير كاذبة وما يريد مسول الخبر بالكذب

حبيش أحسن أم ظبي برابية ... لا بل حبيشة من ظبي ومن ذهب

ثم انصرف من عندها مرة أخرى، فأصابته السماء فأنشأ يقول:

وما أدري إذا أبصرت يومًا ... أصوب القطر أحسن أم حبيش

حبيشة والذي خلق الهدايا ... على أن ليس عند حبيش عيش

فلما سمع بذلك قومه قالوا لأمه: هذا غلام يتيم لا مال عنده، وآل تلك يرغبون عنكم فانظري له بعض نساء قومه لعله يسلي عنها؛ فزوجته جارية ذات جمال وكمال وزينتها بأحسن زينة وأقامتها بين يديه، فلما نظر إليها قال: مرعى ولا كالسعدان. فذهبت كلمته مثلًا، والسعدان نبت يرعاه إبل الملوك فعلموا أنه لا ينصرف عن هواها فتواعدوا حبيشة وقالوا: إذا جاء فأعرضي عنه وتجهميه بالكلام رجاء أن ينصرف بعض الانصراف. فلما رآها لم تستطع أن تفعل ما أُمرت به؛ غير أنها جعلت تنظر إليه وتبكي، فعلم بقصتها فانصرف وهو يقول:

وما كان حبي عن نوال بدلته ... فليس بمسليه التجهم والهجر

سوى أن دائي بنك داء مودة ... قديمًا ولم يمزج كما مزج الخمر

وما أنس م الأشياء لا أنس دمعها ... ونظرتها حتى يغيبني القبر

ثم مكثا على حالهما وطول وجدهما إلى أن وافتهما خيل خالد بن الوليد يوم الغميصاء، فأخذا فيمن أخذ من الأسرى فأوثقا رباطًا. وهذا حديث مشتهر قد رواه محمد بن حميد الخراساني عن سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحاق وحكاه المدائني عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة الثقفي، عن محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، عن أبي حدرد الأسلمي، عن أبيه قال: كنت يوم الغميصاء وهو يوم بني خزيمة في خيل خالد ابن الوليد المخزومي حين وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتل وأسر فقال لي فتى منهم وقد جمعت يداه إلى عنقه ونسوة مجتمعات غير بعيد عنه: يا فتى.

هل أنت آخذ بزمام ناقتي فقائدي إلى هؤلاء النسوة فأقضي إليهن حاجة ثم ترى بعد ذلك ما بدا لك؟ قلت: يسير ما سألت فألحقته بهنَّ فوقف عليهن فقال: اسلمي حبيش على نفاد العيش. قالت: وأنت فاسلم سعيد سقاك ربي الغيث ثم قالت: وأنت فحييت عشر وسبعًا وترًا وثمانيًا تترًا فقال الفتى:

أريتك إذا طالبتكم فوجدتكم ... بحلية أو ألفيتكم بالخوانق
ألم يك حقًّا أن بنول عاشق ... يكلف أدلاج السرى والودائق
فلا ذنب لي قد قلت إذ نحن جيرة ... أثيبي بود قبل إحدى الصفائق
أثيبي بود قبل أن يشحط النوى ... وينأى عدو بالمحب المفارق
فإني ما ضيعت سر أمانة ... ولاراق عيني بعد وجهك رائق
على أن ما نال العشيرة شاغل ... عن الود إلا أن يكون التوامق

ثم بكى وبكت، ثم أنشأ يقول:

فإن يقتلوني يا حبيش فلم يدع ... هواك لهم مني سوى غلة الصدر
وأنت التي أنحلت جلدي على دمي ... وعظمي وأسلبت الدموع على النحر

ثم انصرفت به فضربت عنقه فنظرت النية فأقبلت حتى أكبت عليه، وقد فعلت أيضًا مثل ذلك عفراء بنت عقال بعروة بن حزام لما بلغها موته؛ استأذنت من زوجها في زيارة قبر فخرجت في نسوة لها حتى وردت قبره، فلما رأته من بعيد صرخت ثم دنت فرمت بنفسها عن راحلتها ثم جعلت تبكي وتشهق إلى أن خمد صوتها فدنوا منها فوجدوها ميتة فدفنت إلى جانبه.

وروي الأصمعي أيضًا قال: خرجت أريد بعض أحياء العرب فجنني الليل وبت في جبان وتوسدت قبرًا فسمعت في الليل من القبر قائلًا يقول:

أنعـــم الله بالخيـــالين عينًـــا ... وبمـــسراك يـــا ســـعاد إلينـــا
وحـشة مـا لقيـت مـن خلـل القبـ ... ـــر عـــسى أن أراك أو أن ترينـــا

فارقت له ليلتي فلما أصبحت دخلت الحي فإذا بجنازة قد أقبل بها فسألت عنها فقيل: هذه سعاد كانت تحب ابن عم لها، وأنهما تعاقدا على الوفاء، فهلك قبلها فلم تزل تبكي عليه فها هي قد لحقت به فتبعتهم حتى دفنت إلى جانب القبر الذي بت عنده،وإذا هو قبر ابن عمها فخبرتهم بما سمعت وانصرفت.

وروي أن مالك بن عمرو الغساني تزوج ابنة عم للنعمان بن بشير الأنصاري فأحب كل واحد منهما صاحبه، وكان شجاعًا بطلًا مقدامًا فعهدت إليه أن لا يباشر حربًا، ثم إنه غدا فلقي العدو فطعن فقال وهو يجود بنفسه:

ألا ليـت شـعري عـن غـزال تركتـه ... إذا مـا أتتـه ميتتـي كيـف يـصنع
أيلـبس أثـواب الحـداد تفجعًـا ... عـلى مالـك أم فيـه للبعـل مطمـع
فلـو أننـي كنـت المـؤخر بعـده ... لمـا برحـت نفـسي عليـه تقطـع

فلما أتاها خبره استمسك لسانها حولًا فقال رهطها وعشيرتها: ألو زوجتموها غيره لعلها تسلى وتفبق، فزوجوها رجلًا من أبناء الملوك فساق إليها هدية عظيمة القدر فلما كان ليلة بنائه بها أخذت بعضادتي الباب، ثم أنشأت تقول:

يقـول رجـال زوجوهـا لعلهـا ... تفيـق وتـرضى بعـده بحليـل
فأضمرت في النفس التي ليس بعده ... رجـاء لهـا والـصدق أفـضل قيـل
أبعـد ابـن عمـرو سيد القـوم مالـك ... أَزَفُّ إلى زوج بعـضب كليـل
وخـبرني أصـاحبه أن مالكًـا ... خفيـف عـلى العـلات غـير ثقيـل
وخـبرني أصـحابه أن مالكًـا ... ضروب بـماضي الـشفرتين صـقيل

وخـــبرني أصـــحابه أن مالكًـــا جـــواد بـــما في الرحـــل غـــير بخيـــل
وخـــبرني أصـــحابه أن مالكًـــا ثـــوى وتنـــادى صـــحبه برحيـــل
فـــما كـــان يـــشريني خلـــيلي بخلـــة ومـــا كنـــت أشري مالكًـــا بخليـــل

فقال لها بعلها: ارجعي إلى أهلك ولك كل ما سقت إليك مثلك فليتزوج الرجال.

ومن حسن وفائهن أيضًا ما رواه الهيثم بن عدي فإنه كان في بني عامر بن صعصعة امرأة توفي عنها زوجها، ولها ابنا عم فصارا إلى بعض شيوخهم فقالا له: فلانة جارية شابة والقالة إلى مثلها سريعة، فوجه إليها فلتحضر واعرض عليها أينا الهوى إليها؟ حتى يتزوجها فوجه الشيخ إليها فأتته فعرض عليها مقالتهما، فأطرقت مليًّا تنكث الأرض حتى حفرت فيها حفيرة وملأتها من دموعها، وكان زوجها دفن بمقبرة تدعى بحوضي فالتفتت إلى ابن عمها وأنشأت تقول:

فـــإن تـــسألاني عـــن هـــواي فإنـــه رهـــين بحـــوضي أيهـــا الفتيـــان
وإن تـــسألاني عـــن هـــواي فإنـــه رهـــين لـــه بالحـــب يـــا رجـــلان
وإني لأســـتحيي والمـــوت دوننـــا كـــما كنـــت أســـتحييه حـــين يـــراني
أهابـــك إجـــلالًا وإن كنـــت في الثـــرى لوجهـــك يومًـــا إن يـــسؤك مكـــاني

وقامت فانصرفت، فقال: قد رأيتما وسمعتما فانصرفا وقد يئسا، ثم لقياها يومًا في المقابر وعليها مصبغات وحلي وحلل فقال أحدهما لصاحبه: ما ترى في أي زي خرجت؟ والله ما أراها إلا متعرضة للرجال، هلم فلننظر ما تصنع. فقربا منها فأتت القبر فالتزمته ثم أنشأت تقول:

يا صاحب القبر يـا مـن كـان يؤنـسني وكـــان يحـــسن في الـــدنيا مؤاتـــاتي

أزور قبرك في حيلي وفي حلل ... كأنني لست من أهل المصيبات
أتيت ما كنت من قربي تحب وما ... قد كان يلهيك في ألوان لذاتي
ومن يراني يرى عبري مفجعة ... طويلة الحزن في زوار أموات

ثم شهقت فماتت، ومثل هذا وأشباهه من الوفاء قليل في النساء وهو من وفائهن عجب، والغدر عليهن أغلب إن على ذلك طبع خلقهن وعليه جعلت بنيتهن، وسأصف لك جملة من مكرهنّ؛ لتقف به على غدرهن إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله.

آخر الجزء الأول من كتاب الموشى من

أجزاء أبي الطيب بن الوشاء والحمد

لله كثيرًا وصلواته على محمد

نبيه وآله وسلامه وحسبي

الله ونعم الوكيل

يتلوه الجزء الثاني من كتاب الموشى

بسم الله الرحمن الرحيم

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الحمد لله رب العالمين، وسلام على عباده الذين اصطفى.

(أما بعد) فإنه قد ذكرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب أشياء من عيون فنون الأدب يرغب فيها ذوو الحجى وينتهي إليها ذوو النهى، وقد مضى من الجد عدة أبواب فيها مقنع لذوي الألباب ولا بد من خطلها بشيء من الهزل إن في ذلك ترويحًا لقلوب ذوي العقل، وآخر ما ذكرنا في الجزء الأول ذكر الوفيات من النسايا، وأنا أتبعه في هذا الجزء بباب ذكر ذوات الغدر من الإماء، ثم أصله بما يتصل وأفصله من حيث ينفصل إن شاء الله، وبه القوة.

باب في صفة ذم القيان
ونفوذ حيلتهن في الفتيان

اعلم أنه لم يبتل أحد من أهل المروآت والأدب، وأهل التظرف والأرب، ولا امتحن سراة الفتيان ببلية هي أعظم من هوى القيان؛ لأن حبهنَّ حب كذوب وعشقهن عشق مشوب، وهواهن منسوب إلى الملل ليس بثابت ولا متصل، وإنما هو لطمع وعرض، وهن سريعات الغرض يستدل على ذلك بأفعالهن الرديَّة وأخلاقهن السيئة، وإنهن لن يقصدن إلا أهل النشب ويصدقن عن ذوي الحسب وأن محبتهن تَظهر ما ظهرت علامات اليسار والمال، وينتقل عند الإفلاس والإفلال، وليس إظهارهن للمحبة مما ينعقد عليه منهن ذوو الآداب، ولا بها ينخدع به لهن ذوو الألباب، وكل ذلك منهن غرور وخداع وزور ولا مرجع له ولا محصول، وإنما أمرهن عند ذوي الجهالة مجهول، وما رأيت لكثير من الأدباء الذين سلكوا سبيل التشبيب بالنساء رغبة في تعشق الإماء، وقد أنشدني بعض الظرفاء:

ليس عشق الإماء من شكل مثلي ... إنما يعشق الإماء العبيد
صل إذا ما وصلت حرة قومه ... قد حماها آباؤها والجدود

ومن أدل الأشياء على خبث سرائر الإماء أن الواحدة منهن إذا رأت في مجالس فتى له غني وكثرة مال ويسار وحسن حال، مالت إليه لتخدعه وأقبلت عليه لتصرعه ومنحته نظرها وأبدته بصرها وغمزته بطرفها وأشارت إليه بكفِّها وغنَّت على كاساته ومالت إلى مرضاته وشربت من فضلة كاسه، وأومأت إلى تقبيل رأسه حتى توقع المسكين في حبالها وترهقه باحتيالها وتعلق قلبه بحبها وتطمعه في قربها وتحويه بلطف تملقها وتستبيه ببديع تقنعها وبالمكر والخداع وتطلبها للاجتماع وتباكيها لفرقته وتحازنها عند روحته ترسل إليه بالرسل، وتعاديه بالختل وتخبره عن

سهرها وتنبئه عن فكرها وتشكو إليه القلق وتخبره بالأرق، وتبعث إليه بخاتمها وفضلة من شعرها وقلامة من ظفرها وشظية من مضرابها وقطعة من مسواكها ولبان قد جعلته عوضًا عن قبلتها ومضغة؛ لتخبره عن نكهتها، وكتاب قد نمقته وطيبته بكفها وسحته بوتر من عودها ونقطت عليه قطرات من دمعها وختمته بغالية قد عدل بالعنبر متنها واستمسك تحت الخاتم عجنها، وطبعت عليه بفصٍّ قد نقشت عليه بعض مداعبتها، وتمثلت عليه ببعض مجانتها وضمنت الكتاب شكوى شوق مريض وصفة شوق ممرض، لا تسأله المؤاتاة على حبها والإعانة على كربها، وأن يبعث يطلب زيارتها لتقر بالنظر إليه عينها وينفرج عنها حزنها؛ فيطمع الغمز في قربها ولا يشك في الكلام في إخلاص حبها فيميل إليها بوده وتصفيه بمكنون حبه، حتى إذا حوت عقله وصارت شغله واستمالت لبه وسلبت قلبه واستمكنت من قربه ووثقت بصحيح حبه وعلمت أنه غريق في بحر البلية؛ أخذت في طلب الهدايا السرية وتشهت الثياب العدنية، والأزر الينسابورية، والأشقاق الإنجاجية والأردية الرشيدية، والعمائم السوسية، والنكك الإبريسمية، والخفاف الرنانية، والنعل الكتباتية والحلق المحشوية والمصائب المرصعة، والدستينجات المفصلة، وخواتيم الياقوت المثمنة، وتمارضت من غير سقم وشكت من غير ألم، وفصدت من غير علة وداء وتعالجت من غير حاجة منها إلى الدواء؛ لتجيئها هدايا ذوي الوجد في المرض والفصد من القمص المعنبرة والغلائل الممسكة والأردية المرشوشة، واللخالخ المعجونة، ومخانق الكافور المنظومة، ومراسل القرنفل المجمرة، والمسك الأزفر والعنبر الأشهب والعود الهندي والند الخزائني، والماورد الجوري والحملان الحولية، والجداء الرضع، والبط الصيني، والفراريج الكسكرية، والدجاج الفائق، والفراخ المسمنة، والنبانيج المنضدة بأنواع الرياحين، والفاكهة يتبعها صنوف من الشراب من المعسل والدوشاب والمطبوخ والمشمس ونبيذ السكر والقشمش، ثم الدنانير الجدد

الشهرية والدارهم المسيفة الدارية في خرائط الديباج الإبريسمية، ومناديل الوشي الأنجمية.

فلا تزال في هدايا متواترة وألطاف متتابعة وفي خلال ذلك العيدان العرعر الموزونة والمضارب المدهونة، والأوتار الصينية حتى إذا نفد اليسار وذهب الإكثار وأتلف المال وجاء الإقلال وأحست بالإفلاس وتفريغ الأكياس؛ أظهرت الملل وأعلنت البدل وتبرمت بكلامه وضجرت بسلامه، وطلبت عليه العلل وتفقدت منه الزلل وتتبعت عليه سقطاته وتيممت عثراته، وأخذت في الجفاء والعتاب والقلى والإبعاد وصرفت عنها هواه، ومالت إلى سواه ونفرت بعد القرب وأبغضته بعد الحب؛ فحينئذ يدرك المغرور الندم ويلحقه الأسف حين لا تغني عنه الحيلة، ولا يجدي عليه اللهف ويقع بين: ليت، ولو، وهيهات، ولات حين مناص ولا يقدر على استئناف ما سلف من الأيام بعد الإشراف على ورود حياض الحمام، وقد أنشدني بعض الأدباء لبعض المحدثين:

صحوت فأبصرت الغواية من رشدي ... وأيقنت أني كنت جرت عن القصد
فلا يعشقن من أن يعشق قينة ... فما هو منها في سعيد ولا سعد
تودك ما دامت هداياك جمَّة ... وترفدك عشقًا ما غنيت أخا رفد
إذا ما رأت في مجلس من تخاله ... غنيًّا حبته بالتحية والود
وغنت على أقداحه كل ما اشتهى ... وقالت له ماذا تريد أنا أفدي
وتومي إليه اشرب الرطل واسقني ... فقد حُزت قلبي واشتملت على ودي
فيمتلي المغرور عند مقالها ... سرورًا يرى أن المقال على جد
فإن جاء وقت الانصراف تحازنت ... لفرقته حتى يقوم على وعد
ويغدو إليه في الفراش رسولها ... تسائله ما كان حالك من بعدي

وياليت شعري كيف بت فإنني ... رعيت نجوم الليل كفّي على خدي
فلا يجد المغرور من دفع جدرها ... سرورًا بتعجيل الزيارة من بد
وتسرع في إتيانه ليظنها ... حبته بتعجيل المجيء على عمد
فإن هي جاءت عانقته وقبّلت ... يديه وأبدت فرحة قلّ ما تجدى
وتخدمه عمدًا فإن قال إنه ... ليحزنني أن تصنعي هكذا عندي
* تقول له ذا البيت بيتي وإنما ... أؤمل أن يتاعني سيدي وحدي
فتصبح عيني بالوصال قريرة ... وآمن من سوم التفرق والبعد
لذا دأبها حتى يعود من الهوى ... سقيم فؤاد ما يعيد ولا يبدي
فتفصد لا من حاجة لفصدها ... ولكن لتكليف الهدية في الفصد
فمن بين خلخال يصاغ وخاتم ... ومن دملج يهدي على أثر العقد
ومن ثوب خز بعد وشي وملحم ... ومن مصمت يشري على أثر البرد
ويا لك من مسك ذكي وعنبر ... وعود وكافور نقي ومن ند
فذا فعلها حتى إذا عاد مفلسًا ... تجنت وأبدت جانب الهجر والصد
فقولا لمن يهوى القيان تفهموا ... مقالي فإني قد نصحت لكم جهدي

وأنشدني بعض المحدثين لنفسه:

يا صاح إن القيان للغمر الـ ... ـغر شباك يصدن بالملق
يهوينهن هذا ويشتكين لذا ... وجدًا ويرمقن ذاك بالحدق
حتى إذا ما اقتنصن ذا حمق ... مستهترًا واستمال للومق
نفضنه واستلخن جلدته ... سلخًا بطيب الدلال والفنق
وصار كالأس في غضارته ... صفرًا بلا طارف من الورق
فناولنه المسح ثم قلن له ... جئنا به في البياض كاليقق

وأنشدني بعض الكتاب لفضل الشاعرة:

يا حسن الوجه سيء الأدب ... شبت وأنت الغلام باللعب
يا ويك إن القيان كالشرك الـ ... ـمنصوب بين الغرو والعطب
لا يتصدين للفقير ولا ... يسرمقن إلا معادن الذهب
يلحظن هذا وذا وذاك وذا ... لحظ محب بطرف مكتسب
بينا تشكي إليك إذ خرجت ... من زفرات الشكوى إلى الطلب

وأنشدني أحمد بن غزال لنفسه:

إذا تعرضت للقيان ... فمثل الفقير بالعيان
واعزم على فلسة أسافًا ... أمض من طعنة السنان
كم من تراث ومن تليد ... وطارف واد خارتان
أتلفه متلف عليهم ... بالجذر والبذل والتواني
ما زال يصبو إلى خلوب ... تغني به فوق كل غان
اتخذنه عشيق مال ... أضحت تهواه باللسان
حتى إذا اختل ثم حست ... بفقد فعلاته الحسان
غنته صوتًا لها عتيدًا ... مصرحًا ليس بالمعاني
قد نفد الكيس فاسل عني ... واشتق إذا اشتقت بالأماني

وأنشدني أيضًا:

ومسمعة غنت فملت بمهجتي ... إليها لا لهو والمزاح بسيد
فقالت على اسم الله ثق بمودتي ... وصاف كما صاف الخليط خليط
فأعرضت عنها وانقبضت كأنما ... علتني لديها نعسة وغطيط

فقالت وقد أحجلتها لتغرني ... ورقة فهمي بالقيان محيط
أراك نشيطًا للسماع تحبه ... ولست إلى غير السماع نشيط
فقلت تراني ويك أعشق قينة ... لها كل يوم صاحب وربيط
إذا خرجت من مجلس وتبدلت ... سواه بديلًا أولون نبيط
وإن ذكروا قالت ومن كان حائك ... وآخر منكود المعاش بخيط
لعمرك ما تهوين إلا دراهما ... ومن دونها حزم على سليط
وإني ورب البيت والله راحم ... أفكر فيه هل هواه قميط
بعيني لينج قبل ينقض ريشه ... وقبل يراه الناس وهو سقيط
هوانا هوى يزري عن المرء نعمة ... ويترك رب القوم وهو حطيط
فيعشقنا من في يديه بضاعة ... سفيف إذا بان الرجا وشريط

وقال أيضًا في قصيدة له:

حتى إذا ولت الدراهم غنته ... به وقد أزمعت على الانقطاع
أسل عني فلست أصلح لغيه ... ق ولا يحسن الهوى بالجياع
عندها يأكل المفرط كفيه ... ه ويأوي إلى أخس البقاع

وأنشد للحكمي في مثل ذلك:

قولا لمن يعشق قينة ... يستف حزنًا قبل إفلاسه
فقد نوى في كفها نية ... مسرعة في قلع أضراسه
تواصل العاشق حتى إذا ... ما أخذ العشق بأنفاسه
ولت بغدر وقرون الفتى ... تهتز بالكشح على رأسه

ومن أحسن ما قيل في ذلك قول الشاعر:

ما للأحبة في التخشع عار ... فاخشع وإن حافوا عليك وجاروا
سقيًا ورعيًا للذين يحملوا ... ونأوا وما شدَّت لهم أكوار
لكنهم غدروا بعهدك في الهوى ... وأخو القطيعة جائر غدار
ما إن يبالوا إن جفوك وعرَّجوا ... نحو المدينة أو طنوا أو ساروا
لا بل أشدهما عليك مصيبة ... أن يفعلوا بك إذ هم حضار
لا تعتبن على القيان ولا على ... زهو القيان فإنهن تجار
قدم لهن ملاهيًا ومضاريًا ... وملاويًا يحظى بها الزوار
إن كنت صاحب لطفة وهدية ... فلك الهوى منهن والإيثار
أو كنت صاحب كيف أنت ومرحبًا ... فارحل فعيشك عندهن بوار
ما بد من شيء وإلا لم يكن ... لك ثم إقبال ولا إدبار
لو كنت يوسف في الجمال فإنه ... ما مثله في حسنه ديار
ثم امتنعت من الهدية أنكروا ... منك الذي لا ينكر الأحرار
عندي من القينات خير بين ... ومن الهدية مسند آثار
زار ابن أحمر ذات يوم قينة ... في فتية لهم ندى ووقار
حتى إذا غنتهم وسقتهم ... وتجاوبت في كفها الأوتار
قالت لأولهم أما لك ضيعة ... فأجابها إني فتى سمسار
قالت فأهد لنا إزارًا معلمًا ... فأبو فلان ما عليه إزار
ثم انثنت لسؤال آخر منهم ... أصدق فقال مجيبها عطار
قالت فليس يهمنا ما زرتنا ... أدهاننا والقسط والإظفار
وإذا ابن أحمر قد أعد جوابها ... جدر السؤال كأنه قسطار
ثم انثنت لسؤاله فأجابها ... لا سوق لي لكنني حفار

فإذا هممت بحفر قبرك فابعثي ... بقضيب كي أعرف المقدار
فتلجلجت خجلًا وطاطت رأسها ... وأصابها عند الجواب حصار
وكذا القيان ولا أقول جماعة ... فالناس في أخلاقهم أطوار

ولابن أحمر أيضًا:

عذبني ذو الجلال بالنار ... إن هام قلبي بذات أسوار
ولا تعشقت قينة أبدًا ... حتى تراني رهين أحجار
كم من غني تركن ذا عدم ... أورثنه الذل بعد إكثار
سلبن منه الفؤاد بالنظر الـ ... ـرطب وغنج وغمز أبصار
وبالتشاجي أتلفن مهجته ... وحسن لحن وقرع أوتار
حتى إذا ما مضت دراهمه ... وصار ذا فكرة وتسهار
ناولنه المسح ثم قلن له ... بيضه بالنهر نهر بشار
فلا تغرنك قينة أبدًا ... ودع وصال القيان في النار
فليس في الغدر عندهن إذا ... هوين أو شئن ذاك من عار

وأحسن ابن الجهم حيث يقول:

فاطلق يدًا في بيته بتفضل ... وعد عن المولى وما شئت فافعل
أشر بيد واغمز بطرف ولا تخف ... رقيبًا إذا ما كنت غير مبجل
وول عن المصباح ولح وذمه ... فإن خمد المصباح فادن وقبل
وسل غير ممنوع وقل غير مسكت ... ونم غير مذعور وقم غير معجل
لك البيت ما دامت هداياك جمة ... وكنت مليًّا بالشراب المعسل
تصان لك الأبصار عن كل نظرة ... ويصغى إليكم بالحديث المقلقل

واعلم أنه لا وفاء لهن ولا حفاظ عندهن، ولا يَدُمْنَ على ودٍّ، ولا يفين لعاشق بعهد، وهو أهن مشترك وحبهم مقتسم، وقد أنشدني بعض الأدباء:

استخبرا زينب عن قولها ... في رجل يعبد ربين
أذاك منه حسن جائز ... أم ليس يرضي الله دينين
حسبك يا زينب من هجنة ... يسترزق الدهر على اسمين
فلا تريدي جمع هذا وذا ... فالغمد لا يجمع سيفين
وأنشدي الأمر إلى واحد ... ولا تكوني ذات بعلين
لا يحمل المنبر ردفًا ولا ... يصلح ملكًا بين اثنين
وعادة السوء إذا استحكمت ... على امرئ شر من الدين
لست وإن كان الهوى غالبي ... أقنع بالشين على الشين
يحلب غيري وأكون الذي ... يرضي من العنز بقرنين

وأحسن أبو ذؤيب حيث يقول:

تريدين كيما تجمعيني وخالدا ... وهل يجمع السيفان ويحك في غمد
وكنت كرقراق السراب إذا جرى ... بقوم وقد بات المطي بهم تخدي

وقال آخر:

ألا يا عاشق القينات جهلًا ... أردت بأن تكون أبا البغول
أترضى للهوى من ليس يرضي ... على ضيق الهوى ألفي خليل

وليس هوى القيان بمحمود عندي ولا عند ذوي الأدب وأهل النهي والأرب، ولا لأكثرهم ميل إليه ولا حرص عليه؛ وإن كان قد أنشدني صديق لي قوله فيهن:

زعموا خلة القيان غرور ... كل زعم من المقالة زور

قسما للقيان بالعهد أوفى ... من جوار تضمهن الخدور
إنما زخرف المفاليس هذا ... حين قلت صحاحهم الكسور
أهل هذا الزمان أطرى من ... الآس وكل عمه مستور

واحتج في ذلك بأن هوى القيان على ما فيهن من العيوب أسرع إلى النفوس وأوقع في القلوب وأغلق بالأرواح وأخلق للنجاح، وهن أقرب أملًا وأقل علالًا، والظفر بهن أسرع من الظفر بربات الخدور والمحتجبات وراء الستور، وأنهن مزورات وأولئك معدومات، وزعم من طلب القينة الجدو لمولاها من عشقها وكثرة مئونتها عليه، وطلبًا لما لديه، ومسألتها الهدايا واللطف والبر والتحف؛ إنما هو من رغبتها في هواه وميلها إلى رضاه؛ ولأنها تؤثره على العالمين وتشتهي قربه دون سائر المحبين؛ لأنه إذا وافى جدوها من عند عشيقها مع تتابع ألطافه وكثرة بره وإسلافه، رغب المولى في صفائه وطمع في استصفائه فأحلاها معه الأيام الكثيرة والليالي المتتابعة.

فهذه جملة من القيان لمن عشق ورغبة فيمن ومق، وليس ذاك عندنا كذلك وإنما هي حيلة ممن احتج لهن بالوفاء؛ وهن معروفات بالغدر والجفاء ولو كان ذلك كما زعموا لم تتغير له عند اختلاله ولا قلته عند إقلاله؛ بل كان يكون منها عند ذلك الإسعاف على هواه والمواساة في نفسها في الحياة؛ ولكن هو كما قال المؤمل ابن أميل:

والغانيات كذاك هن غوادر ... أبدًا حبال وصالهن تجذم
يخلبن بالنظر الفتى ويعدنه ... نيلًا ودون عداتهن الأنجم

وكما قال بشار بن برد:

فوالله ما أدري وكل مصيبة ... بأي مكيدات النساء أكاد
غرور مواعيد كأن جداءها ... جدى بارقات مزنهن جماد

ومع ذلك فلا نفاق للشيوخ عندهن، ولا لذوي القبح والعدم مطمع لديهن على أنهن يحتلمن القبح والشيب مع اليسار، ويكرهنهما مع الفقر الإقتار؛ فإذا اجتمع القبح والشيب مع الإفلاس في أي إنسان كان من الناس، فليس عندهن مطلب ولا لديهن سبب؛ ولذلك قال العطوي:

تاهت على بحسنها وجمالها ... وتقول لي يا شيخ أنت مخادع
شيخ وأفلاس وقبح ظاهر ... أطمعت فينا أخلقتك مطامع
فأجبتها الإفلاس يذهبه الغنى ... والشيب يذهبه الخضاب الناصع
قالت فقبح الوجه فيه حيلة ... والقبح ليس له دواء نافع
يا صدقها ما كان أوضح حجتي ... لو كان يدفع قبح وجهي دافع

وقال بعض الأعراب:

طويلات أعناق سباط أكفها ... رقيقات أوساط نبال المآكم
تأزرن رملًا وارتدين بحلبة ... من الروض ويازهرها جد ناعم
وتصرف ودي نحوهن صبابة ... ويصرفن عني الوجه نحو الدراهم

ومثل ذلك ما روي عن نصيب، أنه قال: لقيتني بالطواف امرأة دحداحة مزاحة فقالت: أأنت نصيب. فقلت: نعم. قالت ألست القائل:

إذا البيض لا يأتين في الحب رقة ... يعاب ولا يأخذن في الود درهما
وإذ هن يدنين الكريم بوده ... لهن ويرفضن الصديق الملوما

قالت: لا أراك تكتب إلا درهمك فاغضض ببظرامك من أين تمتشط إحدانا إذن؟ وأنشد بعض الأدباء:

وإذا قلت لها جودي لمن ... قد براه الحب قالت لي أجل

أنـــت صراف فأتيـــك لـــه ... أم بكفيـــك نقـــود تحتمـــل
قلـــت مـــا تهـــوين إلا مـــوسرًا ... ذاهبـــات وعطـــاء وحلـــل
فأجـــابتني بـــصوت مـــسمع ... كـــفَّ عنـــا أنـــت والله مقـــل
أيهـــا النـــاس ألا أخـــبركم ... لـــيس للحـــب مـــع الفقـــر عمـــل

ولقد أحسن أبو الشيص حيث يقول:

حـــر المـــشيب قناعـــه عـــن رأســـه ... فرمينـــه بالـــصدِّ والإعـــراض
ثنتـــان لا تـــصبو النـــساء إلـــيهما ... حـــلى المـــشيب وحلـــة الإنفـــاض
فوعـــودهن إذا وعـــدنك باطـــل ... وبـــروقهن كـــواذب الإيـــماض

وروى عمر بن شبة، عن موسى بن إسماعيل المنقري قال: كان المخبل السعدي يعشق امرأة من قومه فأتلف عليها كل ما يملكه حتى صار يبيع البعر فأتاها يومًا فزبرته وطردته، فانصرف وأنشأ يقول:

إذا قـــلَّ مـــال المـــرء قـــلَّ صـــديقه ... وأومـــت إليـــه بـــالغيوب الأصـــابع

وقال الأصمعي: عشق رجل امرأة وأظهرت له مثل ذلك، فبعثت إليه يومًا تستهديه مالًا فتعذر عليه ووجه بنصف ما طلبت فغضبت وهجرته فكتب إليها:

يـــا أيهـــا الغـــضبان أن ســـامني ... مـــا مثلـــه ثقـــل عـــلى المـــوسر
فجـــدت النـــصف لـــه كـــاملًا ... فقـــال لـــيس الحـــب للمقـــتر
هبنـــي غـــريمًا لـــك يـــا منيتـــي ... مـــا يقبـــل النـــصف من المعـــسر

فكتبت إليه:

إن كنـــت في حالـــك ذا عـــسرة ... فـــدع طـــلاب الـــشادان الأحـــور
مـــا أن منحنـــاك الـــذي نلتـــه ... دون ذوي البهجـــة مـــن معـــشر

ألا لتقضي حاجتي كلها ... في حال ذي العسرة واليسر

وقال الأخطل يصف نفورهنَّ عن المشيب، وغدرهن بالكهول والشيب:

وإذا دعوتك عمهن فإنه ... نسب يزيدك عندهن خبالا
وإذا وعدنك نائلًا أخلفنه ... ووجدت عند عداهن مطالا

وقال القطامي أيضًا:

وإذا دعوتك عمهن فلا تجب ... فهناك لا يجد الصفاء مكانا
وإذا رأين من الشباب لدونة ... فعسى حبالك أن تكون متانا

وقال جرير:

رأت مر السنين أخذن مني ... كما أخذ السرار من الهلال
فقالت فيم أنت من التصابي ... متى عهد التشوق والدلال
فما ترجو وليس هوى الغواني ... لأصحاب التنحنح والسعال

وقال أيضًا:

وإذا الشيوخ تعرضوا لمودة ... قلن التراب لكل شيخ أدزدا
تلقى الفتاة من الشيوخ بلية ... إن البليَّة كل شيخ أرمدا

وقال امرؤ القيس:

أراهن لا يحببن من قلَّ ماله ... ولا من رأين الشيب فيه وقوسا

وأنشدني بعض الكتاب لأبي الشبل:

عذيري من جواري الحي ... إذ يرغبن عن وصلي
رأين الشيب قد ألبسني ... أبهة الكهل

فأعرضن وقد كنَّ إذا قيل أبو الشبل
تساعين فرقعن العكوى بالأعين النجل

وأنشدت لغيره:

رأين الغوان الشيب لاح بعارضي فأعرضن عني بالخدود النواضر
وكن إذا بصرنني أو سمعن بي سعين فرقعن الكوى بالمحاجر

وهن على ما فيهن من سرعة الملل وما طبعن عليه من البدل، متمكنات من القلوب، مبرات عند محبتهن من العيوب، وإن من محمود مذاهب الظرفاء الميل إلى مغازلة النساء ومداعبة القينات، وحب النساء عندهن من حسن الاختيار وهو أشبه بمذاهب ذوي الأخطار، وليس هوى الغلمان عندهن بمحمود ولا هو في سيرهم موجود وإنما آثروا هوى النساء على الغلمان ومدحوهن بكل لسان؛ لمليح براعتهن وتكامل ملاحتهن وعجيب شكلهن وبديع دلهن، وفيهن أيضًا خصال محمودة وملاحة موجودة إن عُدمت من الجمال وجدت في العقل، وإن عُدمت من العقل وجدت في الدلال، وروائحهن أذكى، وهواهن للقلوب أنكى، والعشق بهن أليق، وهن للرجال أوفق، وقد قال بعض الشعراء في ذلك وملح:

أحب النساء وذكر النساء ويعجب قلبي لذيذ الغناء
وهل لذة العيش إلا النساء وحسن الغناء وشرب الطلا

وقال الفرزدق:

منع الحياء من الرجال ونفعها حدق تقلبها النساء خلس
وكان أشدة الرجال إذا رأوا حدق النساء لمثلها أعراض

وقال دعبل بن علي الخزاعي:

أحب ذخيرة وأحب علق ... إلى الغانيات وإن غنينا
وكل بكاء ربع أو مشيب ... نبكيه فهنَّ به عنينا

وقال بعض الأدباء:

فلو أني رأيت الناس يومًا ... وليت الحكومة والخصاما
لقرت عين من يهوى الجواري ... وعاقبت الذي يهوى الغلاما
سألتك أيها أحلا حديثًا ... وأطيب حين تعشقه التزاما
أجارية منعمة رداح ... تريدك للغرام بها غراما
أو أمرد منتن الإبطين منه ... له رمح كرمحك حين قاما
يريدك للدراهم لا لحب ... وتلك تذوب من كلف سقاما

وأنشدني علي بن العباس الرومي لنفسه:

نيكك الغلمان ما أمكنك ... النسوان أفن
إنما يعشق في الظهر إذا أعور بطن

وما رأينا أحدًا من العرب المتقدمين، والشعراء المفضلين صمدوا في أشعارهم إلى غير ذلك النساء، ولا صدروا قصائدهم إلا بالتشبيب بوصف النساء، هذا حسان بن ثابت الأنصاري، شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

يسال قوم هل يقتل المرء مثلي ... واهن البطش والعظام سمو
شأنها العطر والفراش ويعلو ... ها لجين ولؤلؤ منظوم
لو يدب الحولي من ولد الذ ... ر عليها لاندبتها الكلوم

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ينصب له منبرًا في مسجده ويدعوا الناس إلى استماع شعره، وهو يشبب قصائده بهذا، وما أشبهه من ذكر النساء، وهذا كعب بن زهير ينشد النبي صلى الله عليه وسلم في مسجده:

بانت سعاد وقلبي اليوم متبول متيم عندها لم يفد مغلول

أكرم بها خلة لو أنها صدقت موعودها ولو أن النصح مقبول

(ويمدح النبي صلى الله عليه وسلم في قصيدته هذه فيقول فيها):

إن الرسول لنور يستضاء به وصارم من سيوف الله مسلول

والنبي صلى الله عليه وسلم يومئ إلى الناس في مسجده أن اسمعوا شعره، ولو كان ذكر النساء في الشعر منكرًا لكان النبي صلى الله عليه وسلم أولى من أنكره، ولو كان ذكر غير النساء أولى بالتقدمة في الشعر من ذكرهن، لكان النبي صلى الله عليه وسلم أولى من أمر بذلك واستقبحه، ولو كان أيضًا في الشعر ذكر النساء من الرفث والفحش والخنا، لكان ما قيل في رسول الله من المديح أحق بأن يسقط منه ذكر القبيح، كما أسقط ذكر الذكورة ووصف تعشقهم من هذه الأشعار ومن نظائرها من مديح ذوي الأخطار، وما وجدت ذلك في شيء من أشعار المتقدمين، وإنما عرف الآن في شعر المحدثين، وأين ظُرف النساء وحسنهن من غيرهن؟ وأين ملاحة سلامهن وحلاوة كلامهن ومستحسن مداعبتهن ومحبوب معاتبتهن ومليح مراسلتهن؟ لا سيما إن شبن هواهن بالغيرة على محبتهن والتدلل على متعشقيهن وصددن من غير زلل وهجرن من غير ملل، وهن والله في كل أحوالهن القاتلات بأفعالهن، وصالهن ختل، وصدهن قتل، وهن المالكات للقلوب السالبات للعقول؛ إذا خلون مزحن وإن ظهرن نظرن فقتلن بلحظ عيونهن وصرعن بكسر جفونهن،

وأحبين بقولهن الكاذب، ووعدهن الخائب فلا شيء أحسن من مطلهن ولا ألذ من خلف وعدهن.

وقد استحسنت الشعراء ذلك منهن ومدحته في كثير من الأشعار فيهن.

أخبرني أحمد بن يحيى عن الزبير بن بكار، عن سليمان بن عياش السعدي، عن أبيه عن جده قال: حدثني السائب رواية كثير قال: كان كثير رجلًا مذبوبًا لا يستقر في مكان فقال لي ذات يوم: اذهب بنا إلى ابن أبي عتيق نتحدث عنده فأتيناه فاستنشد ابن أبي عتيق كثيرًا فأنشده:

أبائنة سعدي نعم ستبين ... كما أنبت من حل القرين قرين

أآن زم أجمال وفارق جيرة ... وصاح غراب البين أنت حزين

كأنك لم تسمع ولم تر قبلها ... تفرق آلاف لهن حنين

حنين إلى ألافهن وقد بدا ... لهن من الشك الغداة يقين

حتى إذا بلغ إلى قوله:

فأخلفن ميعادي وخنّ أمانتي ... وليس لمن خان الأمانة دين

فقال ابن أبي عتيق: أو على الدين محبتهن يا ابن أبي جمعة، ذلك أملح لهن وأدعى للقلوب إليهن عبيد الله بن قيس الرقيات أشعر منك حيث يقول:

حبذا الادلال والغنج ... والتي في طرفها دعنج

والتي إن حدثت كذبت ... والتي في وصلها خلج

وترى في البيت صورتها ... مثل ما في البيعة السرج

خبروني هل على رجل ... عاشق في قبلة حرج

فقال: لا إن شاء الله، وانصرف. وقال القطامي يستحسن ذلك من أفعالهن ويصف ملاحة اعتلالهن:

وأرى الغواني إنما هي جنة ... شبه الرياح تلون الألوانا
وإذا حلفن فهن أكذب حالف ... حلفًا وأملح كاذب أيمانا

وقد أحسن محمود الوراق حيث يقول:

اصطبح كأس شراب ... واغتبق كأس تصابي
واجعل الأيام قسمًا ... بين عتب وعتاب
ووصال واهتجار ... وبعاد واقتراب
واجتناب في دنو ... ودنو في اجتناب
ورسول بكتاب ... وانتظار لجواب
وقنوع من حبيب ... بالمواعيد الكذاب
ليس في الحب ولا الصبوة حظ للصواب

وقال بعض المحدثين:

ليس يستحسن في حكم الهوى ... عاشق يحسن تأليف الحجج
بني الحب على الجور فلو ... أنصف المعشوق فيه لسمج

وقال آخر، وأحسن في قوله:

ألا إنني راضٍ بما حكمت جمل ... وإن كان لي في البلية والقتل
فكروا على العذل فيها فإنني ... رأيت الهوى فيها يجدده العذل
وما كان جنتها لبذل رجوته ... لديها فاخشى أن يغيره البخل

ومن ذلك قول جميل بن معمر العذري:

ولست على بذل الصفاء هويتها ولكن سبتني بالدلال مع البخل

وقال أيضًا:

ويقلن إنك يا بثين بخيلة نفسي فداؤك من ضنين باخل
ويقلن إنك قد رضيت بباطل منها فهل لك في اعتزال الباطل
ولباطل ممن ألذ وأشتهي أدنى إلى من البغيض الباذل

ودخلت عزة على هشام بن عبد الملك بن مروان، فقال، يا عزة، أتعرفين قول كثير:

وقد زعمت أني تغيرت بعدها ومن ذا الذي يا عز لا يتغير
تغير جسمي والخليقة كالذي عهدت ولم يخبر بسرك مخبر

فقالت: ما أعرف هذا؛ ولكني أعرف قوله:

كأني أناجي صخرة حين أعرضت من الصم لو يمشي بها العصم زلت
صفوح فما تلقاك إلا بخيلة فمن ملّ منها ذلك الوصل ملت

وأنشدني أحمد بن عبيد لرفاعة الفقعسي:

ألم تعلما أم لا وكل بلية من الدهر يفنى بؤسها ونعيمها
ولم تجدا بلجاء إلا بخيلة وإن أيسرت واحتاج يومًا غريمها

وأنشدني محمد بن يزيد لكثير عزة:

وكم من خليل قال لي هل سألتها فقلت نعم ليلى أضن خليل
وأبعده نيلًا وأسرعه قلي وإن سئلت نيلًا فشر منيل

وأنشدني أحمد بن يحيى لجميل بن معمر العذري:

وهجرك من تيما بلاء وشقوة ... عليك مع الشوق الذي لا يفارق
ألا إنها ليست تجود لذي الهوى ... بل البخل منها شيمة وخلائق

وأنشدني ابن أبي خيثمة لعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود:

وزادك إغراء بها طول بخلها ... عليك وأعرى لحم أعظمك الهم

ومثله قول الأحوص بن محمد الأنصاري:

وزادني كلفًا بالحب أن منعت ... أحب شيء إلى الإنسان مامنعا
كنم من دني لها قد كنت أتبعه ... ولو صحا القلب عنها كان لي تبعا

وقال جرير يذكر طور المطل والخلف:

وإذا وعدتك نائلًا أخلفته ... وإذا طلبن لوين كل غريم
يرمين من خلل الستور بأعين ... فيها السقام وبرؤ كل سقيم

وقال أيضًا:

لعمر الغواني ما جزبن صبابتي ... بهن ولا يحببن نسج القصائد
رأيت الغواني مولعات بذي الهوى ... بطول المني والخلف عند المواعد

وقال أيضًا:

لم ترني بذلت لهنَّ ودي ... وكذبت الوشاة فما جزينا
إذا ما قلت جاز لنا التقاضي ... بخلسن بعاجل ومطلن دينا

وقال أيضًا:

يقلن إذا ما حل دينك عندنا ... وخير الذي يقضي من الدين عاجله
لك الخير لا نقضيك الانسية ... من الدين أو عرضًا فهل أنت قابله

وقال أيضًا:

وإذا وعدتك نائلًا أخلفته ... وجعلن ذلك مثل برق الخلب
إن الغواني قد قطعن مودتي ... بعد الصفا ومنعن طيب المشرب

وقال كعب بن زهير:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلًا ... وما مواعيدها إلا الأباطيل
فلا يغرنَّك ما منت وما وعدت ... إن الأماني والأحلام تضليل

وقال نصيب:

ألا بين يا ليلى جمالك ترحل ... ليقطع منا البين ما كان يوصل
تعللنا بالوعد ليلى وتتشني ... بموعودها حتى يموت المعلل

وقال كثير:

وإني لأرضى من نوالك بالذي ... لو أبصره الواشي لقرت بلابله
بلى وبأن لا أستطيع وبالمني ... وبالوعد والتسويف قد مل آمله

وقال آخر:

يا رب خلني من الملاح فقد ... هجن لقلبي من الهوى خبلا
من اللواتي يقلن لن ونعم ... وهما وحتى وقد وسوف ولا

والذي جاء في ذلك كثير يطول شرحه ويعي وصفه، وقد مضى من الفصل ما فيه كفاية لذوي العقل، وقد أفردنا كتاب القيان لذم عظم القيان فأغنى ما في ذلك الكتاب عن تكثير هذا الباب، فاعرفه إن شاء الله، واعلم أن الهوى الحب والبخل والعشق والغزل يحسن بأهل النعمة واليسار ويزري بأهل الإملاق والإقتار، ولسنا

نقول أنه محرم على هؤلاء لإعسارهم ولا محلل لأولئك ليسارهم، وليس بالغني ما يدخل أهل الجهالة في الوصف، ولا بالفقر ما يخرج أهل الأدب من الظرف، وقد قال بعض الشعراء:

قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه ... خلق وجيب قميصه مرقوع

وليس أسباب الهوى مبينة عن اليسار والسعة والغناء والبذل والعطاء، والنفقات العزيزة، والصلاة الكثيرة والهبات الهنية والهدايا السرية، والمختل المعدم والمقل المعسر لا حيلة له في ذلك، فمن تعرض للهوى ومال إلى الصبى لم يحسن ذلك به لإفلاسه وقلة ذات يده وإقلاله، وما هلك امرؤ عرف قدره وأجهل الناس من عدا طوره، وقد قال بعض السخاء يعيب بجهله على الظرفاء: ألم يعلم أنه لا يكون لفقير ظرف ولا يرفع إليه طرف ولا يقع عليه وصف، والفقير مذموم بكل لسان، والغني محبب إلى كل إنسان وأنشد قول عروة بن الورد:

ذريني للغنى أسعى فإني ... رأيت الناس شرهم الفقير

وأحقرهم وأهونهم عليهم ... وأن أمسي له كرم وخير

يباعده الدني وتزدريه ... حليلته وينهره الصغير

وقد أخطأ العائب لهم في مقاله وتكسع في خيرته وضلالته؛ لأن عروة لم يذهب إلى ثلب الأدباء ولا إلى تعنيف الظرفاء، وإنما عنف على طول الإهمال وحث على تكسب الأموال، وهذا مثل قول الآخر:

لعمرك إن المال قد يجعل الفتى ... نسيًا وإن الفقر بالحر قد يزري

وما رفع النفس الدنية كالغنى ... ولا وضع النفس الكريمة كالفقر

ومثل ذلك قول الآخر:

الفقر يزري بأقوام ذوي حسب ... وقد يسود غير السيد المال

وكقول آخر:

أجلك قوم حين صرت إلى الغنى ... وكل غنى في العيون جليل

إذا مالت الدنيا إلى المرء حولت ... إليه ومال الناس حيث تميل

فهؤلاء لم يذهبوا إلى تفنيد المتظرفين، ولا الطعن عن المتفننين، وكيف والتظرف بهم أليق وسمة الظرف عليهم أصدق، وهذا الباب قد ذكرته على جملته في كتاب نظام التاج في صفة الانوك المرزوق والظريف المحتاج، وجعلنا جملة ما مر في كتابنا نصفة بيننا وبين من زعم أن الأمر ليس كذلك، والذي زعم أنه لا يكون للفقير ظرف قد تجاوز في الجهالة والسخف، بلى إن الظرف بذي التقلل مليح ولكن الهوى والعشق بهم قبيح وذلك أن الفقير إن طلب لم ينل وإن رام بلوغًا لم يصل، وإن استوصل لم يوصل فهو كمد القلب عاز اللب، حزين النفس، ميت الحس، ذاهل العقل، بعيد الوصل فتركه التعرض لما لا يقدر على بلوغه إتمامه أولى من تلبسه بما يزيده في اغتمامه، وقد يجوز أن يكون ظريفًا بغير عشق كما كان عاشقًا بغير فسق؛ لأنه تهيأ له إقامة حدود العشق والظرف بلباقته ونظافته وتخلقه وتملقه ومداراته ومساعدته، ولا يتهيأ له القيام بحدود العشق ألا مال له فيعينه على هواه، ولا مقدرة له فتبلغه رضاه، وإن بلى بمن يستهديه ويستكسبه ويطلب بره ويريد فضله، وهو لا يقدر على ذلك، فهي الطامة الكبرى والمصيبة العظمى والحسرة التي تبقى والكمد الذي لا يفنى، فليتحرز الأديب من الهوى قبل وقوعه في العطب، وليحتفظ منه قبل طلبه التخلص من شركه، فلا يقدر على الهرب، وقلَّ من رأيته وقع في هوى فنجا من غله، أو أمكنه التخلص من حبله، ولم يقدر على التخلص من الهوى بعد الوقوع في درك البلا إلا مالك لقلبه مانع لغربه، حازم في فعله، جامع لعقله؛ فإن الأديب إذا كان بهذه الصفة وأى آيات الملل وعلامات المزل وأمارات الغدر ودلالات الهجر، بادر فريسته وتخلص مهجته وزجر قلبه وصرف حبه، ولم يقم على طول الجفاء، ولم

يعرض نفسه لطول البلاء، ولم يستعبدها بالتذلل والخشوع والتضرع؛ ولكنه يصرفها صرف مقتدر عيوف، ويمنعها منع مالك عزوف، وقد شرحت لك ما قيل في المصارمة بابًا لتقف عليه يبين لك صحة ما فيه إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله.

باب ما جاء في مصارمة ذوي الغدر والمبادرة عند الملل والهجر

اعلم أن صبر المحب على هجر الحبيب، تجرعه للغصص والتعذيب، ومعالجة الزفير والنحيب، وتقلقل القلب لفرق الوجيب من العجز والظاهر والموت الحاضر والمبادرة بالانصراف بعد تغير الآلاف من الحزم المكين والرأي الرصين، وأن من أحسن ما قيل في المصارمة، قول زهير بن أبي سلمى حيث يقول:

ألا يال قوم للصبى إذ يقودني ... وللوصل من أسماء إذ أنا طالبه

فليتك قاليني فلا وصل بيننا ... كذلك من يستغن يستغن صاحبه

ومما يتعلق بهذا قول المتلمس:

فإن تقبلي بالود نقبل بمثله ... وإلا فإنا نحن أنأى وأشمس

ومثله قول نافع بن خليفة:

بآية ما قالت غنيت بغيرنا ... ونحن سنغني عنك مثلا ونصدف

وقال آخر:

فإن تقبلي بالود نقبل بمثله ... وإن تدبري أدبر إلى حال باليا

ألم تعلمي أني قليل لبانتي ... إذا لم يكن شيء لشيء مؤاتيا

وقال آخر:

فإن تقبلي بالود نقبل بمثله ... وإن تؤذنينا بالصريمة نصرم

ومثله قول عمر بن أبي ربيعة:

سلام عليها ما أحبت سلامنا ... فإن كرهته فالسلام على أخرى

ومثله قول الآخر:

وكنت إذا خليل رام صرمي ... وجدت لدي منفسحًا عريضًا

وأجاد أبو ذؤيب الهزلي حيث يقول:

فإن وصلت حبل الصفاء قدم لها ... وإن صرمته فانصرف عن تحامل

ومثله قول إبراهيم بن العباس:

بقلبي من هوى البيض انصراف ... وتعجبني من البيض القضاف

فإن أنصفن في ودي وإلا ... فليس على مسيء من سلام

وقد أحسن الذي يقول:

كم من أخي ثقة قد كنت آمله ... هبَّت عليه رياح الغدر فانتقضا

أهملته حين لم أملك صيانته ... ثم انقبضت بودي مثل ما انقبضا

وقلت للنفس عديه فتى نزحت ... به النوى أو من القرض الذي انقرضا

فما بكيت عليه حين فارقني ... ولا وجدت له بين الحشا مضضا

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر:

أميطي الهوى إن شئت عني فانقضي ... عهود الهوى واسترزقي الله في ستر

فلو كنت لي عينًا إذًا لفقأتها ... ولو كنت لي أذنًا رميتك بالوقر

ولو كنت لي كفًا إذًا لقطعتها ... ولو كنت لي قلبًا نزعتك من صدري

سألتك هل للناقض العهد والذي ... يخون سوى الإعراض والصد والهجر

فإن شئت فاقليني وإن شئت فأعرضي ... فوالله ما أمسيت مني على أمر

ولقد أحسن الخليع حين يقول:

هويتكم جهدي وزدت على الجهد ... ولم أر فيكم من يقيم على العهد
فإن أمس فيكم زاهدًا بعد رغبة ... فبعد اختبار كان في وصلكم زهدي
لعمري لقد أغضيت فيكم على التي ... تجرعني المكروه من غصص الحقد
تأنيتكم بقيا الصديق لتقصدوا ... وتأبون إلا أن تجوروا عن القصد
تعزوا بيأس عن هواي فإنني ... إذا انصرفت نفسي فهيهات من ردي
أبي القلب إلا نبوة عن جميعكم ... كنبوتكم عني ففي السحق والبعد
أرى الغدر ضدًا للوفاء وإنني ... لأعلم أن الضد ينبو عن الضد
إذا خنتم بالغيب عهدي فما لكم ... تدلون إدلالا المقيم على العهد
صلوا فافعلوا فعل المدل بوصله ... وإلا فصدوا وافعلوا فعل ذي الصد
فكم من نذير كان لي قبل فيكم ... وها أنا ذا فيكم نذير لمن بعدي
فوا أسفًا من صبوة ضاع شكرها ... مضت سلفًا في غير أجر ولا حمد

وأنشدني بعض المحدثين:

هجرت حبيبًا كنت أحسب أنني ... سأقضي حياتي قبل هجرانه وجدا
وذلك أني كنت صبا بحبه ... أجاوز للإفراط في حبه الحدا
فقابلني من قلة الحفظ للوفا ... بأن خانني ودي ولم يرع لي عهدا
فقلت لقلبي بالملامة فاصطبر ... ورم سلوة تلقي بسلوتك الرشدا
فطاوعني قلبي فبت مسلمًا ... أفتش عن ودي فلا أجد الودا

وأنشد أبو الطيب لنفسه في مثل ذلك:

عتبت عليكم مرة بعد مرة ... وأفرطت في التعذال واللوم والزجر
فلما رأيت القول ليس بنافعي ... ولا النهي مقبولًا لدى ولا أمري
زجرت فؤادي زجرة عن هواكم ... وقلت له سرًّا فاصغى إلى سري
أفق كم يكون الهجر ممن تحبه ... وهجر الذي تهوى أحرُّ من الجمر
وصبرك لو تدري على الهجر ساعة ... وقد كنت ترجوه أحر من الجمر
تعز فإن الغدر منه سجية ... ولا داء أدوى من معالجة الغدر
تعز فإن اليأس يذهب بالهوى ... ولا شيء أشفى للفؤاد من الهجر
تعز وداو القلب منك بهجره ... ففي الهجر لو يأتي شفا غِلّة الصدر
فطاوعني قلبي فبت أرى الهوى ... وما كنت فيه كالجنون أو السحر
وأصبح قلبي فارغًا من هواكم ... كأن لم يكن عاناه في سالف الدهر
وأضحى وما فيه من الحب والهوى ... إذا قِيس مقدار الشعير من الذر

ولقد أحسن الذي يقول:

وددتك لما كان ودك خالصًا ... وأعرضت لما صار نهبًا مقسما
ولن يلبث الحوض الوثيق بناؤه ... على كثرة الوُراد أن يتهدما

وقال آخر:

لا أشتهي رنق الحياض ولا التي ... تخاض ويغشاها المطرحة الجرب
ولا أشتهي إلا مشارب أحرزت ... عن الناس حتى ليس في مائها عب

وأنشدني أحمد بن يحيى:

وأني لأستحيي من الله أن أرى ... رديف وصال أو على رديف

وأشرب رنقًا منك بعد مودة ... وأرضى بحبل منك وهو ضعيف
وإني للماء المخالط للقذى ... إذا كثرت وراده لعيوف

ومثله قول الآخر:

لقد زعمت رباك أنك غادر ... وأنك للشرب الغداة عيوف
لقد كذبت ما أن أعيج بمشرب ... أجاج ومالي في الوصال رديف

وأخبرني أحمد بن يحيى، عن الزبير بن بكار قال: كان نصيب يأتي خلة له بالأبواء وكان إذا أتاها رحبت به أمها وأكرمته وفرشت له إلى جنب ابنتها؛ فجاء يومًا وعندها فتى أصفر كأنه مسير يتولج عليهم بيتهم بغير أذن، ويختلط بهم اختلاطًا يكرهه نصيب؛ فوثب إلى رحله فشدَّه على راحلته فعلقت به الجارية وقالت: ألا تبوء عندنا يا أبا محجن كعادتك، فقال:

أراك طموح العين طارفة الهوى ... لهذا وهذا منك ود مؤالف
فإن تحملي ردفين لا أك منهما ... فجيئي بفرد أنني لا أرادف

وأنشدني إبراهيم بن محمد النحوي لنفسه:

يا من توهم أننا نهواه ... ونذوب شوقًا إن نأى مثواه
كذبتك نفسك في بعادك راحة ... إن كنت ممن مهجتي تسلاه
لا يجمع القلب القرح صبابة ... وتأذيا منه بمن يهواه
لكن إذا حلّ الأذى صرف الهوى ... فانزاح عن قلب المحب هواه

ومثل ذلك، قول أسماء بن خارجة الفزاري:

خذي العفو مني تستديمي مودتي ... ولا تنطقي في صور حين أغضب
فإني رأيت الحب في القلب والأذى ... إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

ومثله قول الآخر:

وصلتك لما أن رأيتك واصلا ... وباعدت حبل الوصل لما بدالكا
توهمت منك الحفظ والرع للهوى ... يكون فلما أن رأيت فعالكا
زجرت فؤادي واجتبتك بعدما ... رأيت ونحيت الهوى عن إنائكا
فإن قال قوم إن في الناس عاشقًا ... سلا سرعة يومًا فإني ذالكا

وأنشدني غيره أيضًا:

منحتكم صفو المودة والهوى ... وأفرطت حتى جزت في ذلك الحدا
وأعطيتكم مني القياد ولم أكن ... لأعطيه من أهوى ولو شفني وجدا
فقابلتموني ضد ما قد منحتكم ... وما كان حقي أن أقابله ضدا
فقد نلت مما كان مني من الهوى ... وآليت إلا أخصل الحب والودا
فإن شئتم جدوا الوصال من الهوى ... وإن شئتم خونوا القطيعة والعهدا
فإني بري لاذكرت مودة ... ولا عشت إلا سامرًا يا كذا فردا

وأنشدني أيضًا لنفسه:

من سلا عنك فاسله ... لك في الناس مثله
لا تقولنَّ لم وكم ... وعسى أو لعله
فالعسى يعقد الهوى ... والتعزي يحله
كل حب إذا انقضى ... بعضه هان كله

وأنشدني أبو عبد الله بن مسرف لنفسه:

ادنُ من كل صاحب يدن شبرًا ... منك بالوصل والوداد زراعا
وإذا ما نأى زراعًا فزده ... أنت بالهجر والقطيعة باعا

ثـــم لا تطعـــنن يومًـــا عليـــه بعيـــوب وإن شـــناك ســـماعا

وهذا الباب على كثرته واتساع القول في صحته، يعز على الأديب فعله ويمنعه ومن إتيانه شغله؛ لأنه لا يقدر أحد على التخلص من الهوى بعد الوقوع في شركه وإشرافه على مهول مهلكه، إلا بعدهم دخيل وسقم طويل وفكر قاتل وشغل شاغل، فتحرز ذوي النهي من الهوى بالنزوع أولى من أعمال الحيلة في طلب التخلص والرجوع، واعلم أنه لا يصح العشق إلا لأربعة؛ لذوي مروة ظاهرة، أو ذي طاهرة، أو ذي مال واسع، أو ذي أدب بارع، ويقبح ممن سواهم؛ لأن الفقير إذا تعدى طوره ورام أن يجاوز قدره قبح ذلك به، كما أنه يقبح بذي الغني ترك التعرض لأسباب الهوى؛ وذلك لصغر نفسه الدنية وسقوط همته الردية لا يمنعه من طلبه قلة ذات يده ولا تعذر الجد؛ بل فساد الطبع وعدم الحاسة وموت الذات؛ وبعد فإن كنا في تقدمنا في غرض خطابنا وفصول كتابنا بإباحة العشق والهوى ودعونا إليه الأدباء وحثثنا عليه الظرفاء وملأنا بذلك كتابنا فإنا نفرد للنصيحة فيه بابًا يميل إليه أهل التدبير وأهل المعرفة والتبحر ويرغب فيه العاقل ويزهد فيه الجاهل؛ لأني لم أخله من كلام منثور وشعر مشهور، فقف على ما أصلت يَبِن لك ما فرعت إن شاء الله.

باب النهي عن الهوى والتعرض لأسباب الضنى

اعلم أنه يقبح بالرجل الأديب والعاقل اللبيب أن يستخذي في هواه، ويملك قلبه سوّاه، ويكون خادام قلبه وأسير حبه؛ لا سيما مع تغير الزمان وغدر الأحباب والخلان ما يجد فيهم خليلًا صادقًا ولا يصاحب إلا ماذقًا، ثم إن أجهل الجهالة وأضل الضلالة صبر الفتى الأديب على غدر الحبيب؛ فإن الصبر على الخيانة والغدر يضع من المروءة والقدر. وقد قال بعض الشعراء فأحسن:

وإني وإن حنت إليكم ضمائري ... فما قدر حي أن يذل له قدري

فلا ينبغي لأحد أن يذل لهواه فيشمت بنفسه أعداه، ولا يركن إلى واحدة من النساء الحرائر والإماء؛ فكلهن في الغدر سواء وما لواحدة منهن عهد ولا وفاء.

ولقد أحسن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حيث يقول:

لا أيها القوم المحبون ويحكم ... تعزوا عن الأحباب واحتسبوا الأجرا

فما واحد منهم بواف لواحد ... وصاحبتي تجزي وفائي لها غدرا

فلو كنت من صخر لما كنت صابرًا ... وما أنا من صخر وما أترك الصبرا

وقد بلغنا أن ببعض بلاد الهند قومًا لا يعشقون، ويرونه ضربًا من السحر والجنون؛ وذلك لمن فيهم الفلسفة ولهم الحكمة والتجربة؛ زعموا أن سبب العشق سبب النوى وفيه المذلة والعناء ومنه يكون السقم والضنى، وأكثر من في النساء وفاءً أسرعهن خيانة وجفاء وأعطاهن حلفًا وأيمانًا أسرعهن خبثًا وسلوانًا، فيا رحمتي للأدباء وشفقتي على الظرفاء، فما أطول بلاءهم وأكثر شقاءهم وأسخن عيونهم،

يبلتي العزيز منهم بالذليلة والكثير منهم بالقيلة، والشريف بالدنية والنبيل بالزرية فيطول في عشقها سهره، ويكثر في أمورها فكره، وتنهل عليها إذا نأت دموعه، ويطول لديها إذا قربت خضوعه وهي تظهر له المحبة، وتبدي له الرغبة وتحلف له بالأيمان المحرجات والعهود المؤكدات، أنه حظها من الآدميين وشغلها دون سائر العالمين، وتريه الجزع عند الفراق والفرح عن التلاق فتملأ قلبه همًا وتورثه ضنى وسقمًا، وهي تكاتب سواه ولا تعبأ بهواه، لها في كل زاوية ربيط، وفي كل محلة خليط لم يعدها قول الشاعر ابن نواس:

فيا من ليس يقنعها محب ... ولا ألفًا محب كل عام
أظنك من بقية قوم موسى ... فهم لا يصبرون على طعام
أتيت فؤادها أشكوا إليه ... فلم أخلص إليه من الزحام

ولا قول الذي أنشدني قوله أيضًا:

الخان يعجز عن قوم إذا كثروا ... لكن قلبك مثل الخان أضعاف
في كل يوم له خمسون يعشقهم ... في كل شهر له ألف وآلاف

وحكى الهيثم بن عدي أن رجلًا من العرب هوى جارية فتمسك بودها وركن إلى محبتها، ثم اطلع على أنها لا ترديد لامس؛ فقطعها وأنشد يقول:

ألا حي أطلالًا لواسعة الحبل ... ألوف تسوي صالح القوم بالرذل
فلو أن من أضحى بمنعرج اللوى ... إلى الرملة القصوى بساقطة النعل
جلوسًا إلى أن يقصر الظل عندها ... لراحوا وكل القوم منها على وصل

ومن أكثر المحال وأحمق المقال قناعة المرأة بصديق وصبرها على رفيق أحسن من فيهن حالًا، وأقلهن أشغالًا من لها صاحب مشهور وخليل مستور وربيط تراسله

وصديق تحامله، وإن كان ذلك لا لمال ولا لطمع وآمال، فقد كنا تقدمنا في باب صفة القينات وما طبعن عليه من المكر والخيانات، أنهن يكتسبن بالهوى والعشق ويدارين بالتملق والرفق، وليس بنات البيوت في الخدور وربات الحجال والقصور كذوات المذق من القينات وكذوات التكسب من المتقنيات؛ فإن هؤلاء معروفات بطلب الدراهم والأموال، منسوبات إلى التكسب بتعشق الرجال، لا يقدم عليهن إلا مغرور ولا يثق بهن إلا مسحور، وإنما يذهب على أهل الألباب وأهل التظرف والآداب ومكر البنات المخدرات والغواني المحجبات اللواتي لم ترهن العيون ولم تكثر فيهن القالة والظنون، اللواتي يبذلن نفيس الأموال لمن يتعشقنه ويعنين من راسلنه وكاتبنه، وتزعمن أنهن وراء الحجاب ودون الأقفال والأبواب، وأنهن لا فرج لهن إلا في المكاتبة ولا فرح إلا في المراسلة، ولا سرور إلا في النظر من بعيد ولا يقدرن على اللقاء إلا في الخروج في كل عيد، وأولئك اللواتي تخف أمورهن وتعنى سرائرهن، ويطمع الجاهل فيهن ويصبو النزق إليهن، ويثق بحبهن الأحداث والأطفال ولا يتمسك بمودتهن إلا الجهال؛ مع أن مكرهن أخفى من الخيال وأعظم من راسيات الجبال، تنفذ حيلهن على الرجال ويتمكن كيدهن من الأبطال.

وفيما خبر الله جل ثناؤه في بعض القرآن من عظيم كيدهن ولطف حيلهن ما يغني عن شرح كثير من سرهن، وإن في قصة زليخة ويوسف ما يستغني به ذوو العقل والأفهام من مكرهن القوي وكيدهن الخفي، ولن يحترز منهن إلا المجرب ويتقى منهن إلا المدرب، فإن ذا الحنكة إذا كان بهن عليمًا وكان في أمورهن حكيمًا أخذ من حبهن عفوه وشرب من هواهن صفوه ولم يعلق بهن فؤاده ولم يملكن قياده؛ وذلك الحسن الحال والرخي البال لم تورقه الغموم ولم تنضجه الهموم لا كالذي غلب عليه الشقاء وأتيح له البلاء فركن إلى حبهنَّ ودعته الرغبة إلى ودهنَّ؛ فتمكن منه الهوى وتفرد به الضنى، وتلك لا تشعر بسهره ولا تعبأ بفكره، وبالله أقسم

صادقًا لو حلفت أنهن لا يعرفن شيئًا من الوفاء ما حنثت، ولو بحث المغرور بهنَّ المخدوع بحبهن عن صحيح أخبارهنَّ، وفحص عن مكنون أسرارهن لوقف على صورة غدرهنَّ، ولبان له جملة من مكرهن ولهن عليه بعد الكرامة ولرجع على نفسه بالملامة كما أنشدني بعض الأدباء لنفسه:

أصلك أرجو بعد أن رث حبله ... لقد ضل سعي إذ رجوت ملولا
أتوب إليك اليوم من كل توبة ... فقد هنت في عيني وكنت جليلا
إذا لم يجد الفتى عن الغدر مذهبًا ... وجدت إلى حسن العزاء سبيلا
فوالله لا أرضيت داعية الهوى ... إليك ولا أغضبت فيك عذولا

وأنشدني أيضًا:

[illegible] ... [illegible]
ولولا أمور عارضت ما سبقتني ... إلى الغدر حقًّا لو تركت ورائي
سأنزف دمعي حسرة وتندما ... على ما مضى من صبوتي وعنائي

أنشدني للحسين الخليع:

يراك على الأيام تنجو مسلمًا ... ولست ترى من غدرة أبدًا بدا
ألست الذي آليت بالله جاهدًا ... يمينًا وخنت الله موثقه عمدا
ألا في سبيل الله ود بذلته ... لمن خانني ودي لم يرع لي عهدا
عدمتك من قلب أقام لغادر ... على العهد حتى كاد يقتلني جدا

ومن ذلك قول الحكمي:

ألا في سبيل الله ود بذلته ... لمن لم يكن مني لمعشاره أهلا
سوى ما إذا فكرت فيه وجدتني ... أفوز به أني اكتسبت به عقلا

وأنشدني بعض الأدباء لنفسه:

توافيت لي حتى حسبتك مغرمًا ... وأعرضت حتى خلت نفسي مجرما
ومالك شيء منهما غير أنني ... أراك ترى نقض المواثيق مغنما
وما كنت أدري كيف يصبر عاشق ... ولا كيف يسلى بعد أن يتسليا
فأنفذتني بالغدر من غمرة الهوى ... وعلّمت قلبي الصبر حتى تعلما
ولو لم تخلصني بغدرك لم أجد ... إلى سلوة حتى القيامة سلما
فلم ترعني قبل شخصك ظالمًا ... تعمد أن يجني فأصبح مستغما
فجوزيت عني بالذي أنت أهله ... فكل امرئ يجزى بما قد تيمما
سيندم إنسانًا لعهد خليله ... وقلّ لمن لم يرع أن يتندما

وأنشدني أيضًا:

يا قلب قد بان من كلفت به ... فخل عنك البكاء من أثره
شغلك بالفكر في تغيره ... أعظم مما لقيت من حذره
قد يسلم العاجز الضعيف وقد ... تتلف روح القوي من غيره
وقد يفوت القريب مطلبه ... وقد يؤوب البعيد من سفره
فإن يذقك الوصال حسرته ... فقد جنيت اللذيذ من ثمره
فارحل فمن لا يحل مورده ... يفض به صفوه إلى كدره

ولقد أحسن الحكمي حيث يقول:

أيها المنتاب عن عفره ... لست من ليلى ولا سمره
لا أذود الطير عن شجر ... قد بلوت المر من ثمره

وأنشدني محمد بن خلف؛ أحد الفقهاء وأحسن في قوله:

إذا كنت لا أنفك منك مروعًا ... بغدر فإن الهجر ليس برائع
إذا خانني من كنت أهوى وصاله ... فلست بجنات الخلود بقانع
أبت عزماتي أن يقود زمامها ... إلى غادر بالعهد ذل المطامع
فيا من به كانت حياتي حبيبة ... إليَّ ومن لولاه قلت روائعي
تعز بيأس عن تذكر ما مضى ... فلست لمن لم يرع عهدي بتابع
وإني وإن لم يرق دمعي تأسفًا ... عليك فما قلبي إليك براجع

وأجود ما قيل في هذا الباب قول أبي ذؤيب الهذلي:

فإن تُعرضي عني وإن تتبدلي ... خليلًا واحدًا كن سوء قصارها
فإني إذا ما خلته رث حبلها ... وجدت لصرمي واستمر عذارها
وحالت كحول القوس طلت وعطلت ... ثلاثًا فأعيي ردها وظهارها
فإني قمين أن أودع عهدها ... بحمد ولم يرفع إلينا شنارها

وأحسن محمد بن عبد الله بن طاهر حيث يقول:

ألم تر أن المرء تدوي يمينه ... فيقطعها عمدًا ليسلم سائره
وكيف تراه بعد يمناه صانعًا ... بمن ليس منه حين تدوي سرائره

فهكذا لعمري ينبغي أن يفعل الأدباء، ويمثل هذا فليتعظ الظرفاء، وقد يجب على العاقل المتأدب وذوي الحنكة والتجارب، أن يجعل المرأة بمنزلة الريحانة يتنعم بنضرتها ويتمتع بزهرتها حتى إذا جاء أوان جفافها وحالت عن حالها في وقت قطافها، نبذها من يده وألقاها وباعدها عن مجلسه وقلاها إذا لم يبق فيها بقية لمستمتع ولا لذة لمتمتع، ولله در الذي يقول:

تمتع بها ماسا عفتك ولا تكن عليك ... شجًا في الحلق حين تبين
وإن هي أعطتك الليان فإنها ... لآخر من خلانها ستلين
وإن أقسمت لا ينقض النأي عهدها ... فليس لمخضوب البنان يمين

ومثل ذلك قول النمر بن تولب:

وكل خليل علته الرعا ... ث والجبلات كذوب ملق

ومن جيد ما قيل في هذا الباب مما يجب قبوله على ذوي الألباب قول الحكم بن معمر الحضرمي أحد بني حصن بن محارب:

وبعض الهوى داء وفي اليأس راحة ... إذا أنبت وصل أو نبا بك منزل
وذو العقل لا يأسى على وصل خلة ... إذا لم يكن يومًا عليها معول
فلا ترض بالأمر الذي ليس بالرضي ... إذا كنت تغتام الأمور وتفصل
إذا المرء لم يجبك إلا تكرمًا ... فدعه ولا يعجز عليك التحول
وفي الأرض أكفاء وفيها مراغم ... عريض لمن خاف الهوان ومرحل
وأن يقطع الأمر الذي أنت قادر ... على جده منه أعف وأجمل

والكلام في هذا الباب مطرد، والقول فيه منسرد ولكن كرهت به إطالة الكتاب واقتصرت على قليل من الخطاب، وأبديت نصيحتي للأدباء وأهل المعرفة والعقلاء وأخبرت بما صحَّ عندي وبالغت في النصيحة جهدي، فإن رغب فيها راغب فغير معلوم، وإن زهد فيها زاهد فغير مذموم، وأنا أعود إلى ذكر الظرف والهوى فقد مضى من هذا الباب ما كفى.

واعلم أن للعشق سنَّة مقصودة وللظرف شرائع محدودة، ورأينا أربابه وأهله وطلابه متبعين لسبلها متمسكين بحبلها، متى حالوا عنها سموا بغير اسم الظرفاء

عند أهل الظرف ودعوا إلى غير سنة العشاق والأدباء، ولهم فيما استحسنوه من الزي والطيب والثياب والهدايا والطعام والشراب، حد محدود مستحسن معلوم، وزي بين الطائفتين مقسوم، لا الرجال يتجاوزون ما حد لهم إلى حد متظرفات النساء، ولا النساء يتجاوزون حدهنَّ إلى حد الرجال الظرفاء، وأنا أصف لك زي الفريقين من الظرفاء والمتظرفات وأشرح لك ما عليه هؤلاء وهؤلاء من الزي والهيئات إن شاء الله.

باب ذكر زي الظرفاء في اللباس المستحسن عند سرات الناس

اعلم أن من زي الرجال الظرفاء وذوي المروة الأدباء، الغلائل الرقاق والقمص السفاق من جيد ضروب الكتاب الناعمة النقية الألوان مثل: الديبقي، والجنابي، والمبطنات، التاختج والخامات، ودراريع الدرجرد، والاسكندراني، والملحم الخزي والخراساني، ومبطنات القوهي الرطب، وأزر القصب الشرب، والأردية المحشاة العدنية، والطيالسة الملحم النيسابورية، والمصمتة الديبقية، والجباب النيسابورية، والمصمتة الطرازية، والوشي السعدية، والخزوز الكوفية، والمطارف السوسية، والأكسية الفارسية، والطيالسة التونسية الزرق السلولية، وكل ما أشبه ذلك وقاربه ودنا منه وصاحبه.

وليس يستحسن لبس الثياب الشنعة الألوان المصبوغة بالطيب والزعفران مثل: الملحم الأصفر، والديبقي المعنبر؛ لأن ذلك من لبس النساء ولبس القينات والإماء، وقد يلبسون ذلك في الفصد والعلاجات، ووقت الشراب والخلوات الغلائل الممسكة والقمص المعنبرة، والأردية الملونة، والأزر المعصفرة، وربما استعلموها لفرشهم ولبسوها في وقت قصفهم وتظرفوا بها في مجالسهم وتخففوا بها في منازلهم، والظهور فيها قبيح بالسوقة، والظرفاء مستحسن من أهل النعم وأبناء الخلفاء، وليس يجيز أهل الظرف والأدب لبس شيء من الثياب الدنسة مع غسيل ولا غسيلًا مع جديد، ولا الكتاب مع المروي، ولا البابياف مع القوهي أيضًا، وأحسن الزي ما تشاكل وانطبق وتقارب واتفق.

باب زي الظراف في التكك والنعال والخفاف

ومن زيهم؛ لبس النعال الزيجية، والشخان الكنباتية، والمشعرة اليمانية، والحذو اللطاف، والمختمة الخفاف، ويشرك أسودها بأحمر وأصفرها بأسود، ويلبسون الخفاف الهاشمية، والمكسورة الكتابية، ومن الأدم الثخين والأسود الرزين بالجوراب الخز والمرعزي والقز، ويعيبون لبس الأحمر من الخفاف ولبس الدارشية الخفاف، ويتخذون التكك الأبريسمية، والتكك الخزية، والمطارف القطنية والمنقوشة الأرمنية.

باب زيهم المخصوص في الخواتيم والفصوص

التختم بالعقيق الأحمر، والفيروزج الأخضر، والفضة المحرقة، والياقوت الأسمانجوني، والبجاذي الخراساني، والمعرانية الحمر، والياقوتية الصفر، واليمانية السود الحسنة القدود على الخواتيم المهرانية والمضروبة المتوكلية، ولا يتختمون بالذهب، وليس من زي ذوي الأدب؛ وإنما هو من لبس النساء وليس الصبيان والإماء.

باب زيهم في التعطر والطيب الذي من خالفه كان غير مصيب

ومن زيهم في التعطر والطيب بالمسك المسحول بماء الورد المحلول، واستعمال العود المعنبر بماء القرنفل المخمر، والند السلطاني، والعنبر البحراني، والعبير والذرائر المفتوقة بالعبائر، وسوى ذلك من الطيب لا يقربونه، والكافور لعلة برده لا يستعملونه إلا من حرارة ظاهرة أو من علة غالبة أو موضوعًا على الجمر مخلوطًا بعبير المسك، وزعفران الشعر؛ وهو بهذه الصفة أطيب البخور، وليس البرمكية وما أشبهها عليه بمحظور، وإن الجيد من البرمكية ومن البخور الزكية، وإنما يكره استعمالها المتظرفون إذ هي مما يستعملونه المتقللون، وكذلك اجتنبوا ماء الخلوق؛ لأنه من طيب النساء والغالية أذهى من طيب الصبيان والإماء، ولا يستعملون شيئًا من الطيب الذفر مما يبدو له لون ويبقى له أثر؛ وفي ذلك حديث مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «طيب الرجال ما ظهر رائحته». ومتى استعملوا شيئًا من الغالية أو أطيب النساء كانت في أصول الشعر بحيث يشم ولا يُرى له أثر.

باب في مستظرفات النساء في اللباس المخالف لزي الظرفاء

لبس الغلائل الدخانية، والأردية الرشيدية، والشروب المزنرة، والأردية الطبرية، والقصب الملون، والحرير المعين، والمقانع النيسابورية، وأزر الملحم الخراسانية، والجربانات المخانقية، والكمام المفتوحة، والسراويلات البيض المذيلة، والمعاجر السود المصنبلة، ولا يلبسن شيئًا من التكك، ولا شيئًا من المرشوش والمطيب، ولا النقية الألوان ولا من الثياب البيض الكتان إلا ما كان ملونًا في نفسه أو مصبوغًا من جنسه أو مغيرًا بلون من أجناس المسك، والمصندل وأجناس المعنبر، والمسنبل ليحول بالطيب عن تلك الحال إذ لبس البياض عندهم من زي الرجال.

ولا يلبسن أيضًا من الثياب الأصفر والاسود والأخضر والمورد والأحمر إلا ما كان جنسه الصفرة، والنزريق والخضرة والتوريد والحمرة مثل: اللاذ والحرير والقز والديباج والوشي، والخزلان لبس المورد والأحمر والسنيري الأخضر؛ إنما هو من لبس النساء النبطيات ولبس الإماء المتقينات، والبياض عندهم من لبس المهجورات، والأزرق والحداد من لبس الأرامل والمقرعات، وأحسن الذي عندهم ما ذكرناه وليس يتجاوز حد ما رسمناه.

باب زيهن المخالف زي الرجال في لبس التكك والخفاف والنعال

لبس النعال الكنباتية المشعرة، والمدهونة المخضرة، والخفاف الزنانية، والمكسورة والرهاوية، والتكك الأبريسيمية، والرجال يشركونهن في التكك الأبريسيمية، ولا يشركن الرجال في التكك الديباج المنسوجة، وشرابات الأبريسم الفتولة، والزنانيرة العراض، ولا يزهين في ألوانها إلى البياض، ولا ما كان منها كثير الألوان والتخطيط، ويتطيرن من الألوان، وقد يلبسن أيضًا التكك الخزية المطرفة القطنية، ومن زيهن أيضًا في الطيب الذي ليس للرجال فيه نصيب، استعمال اللخالخ، والصندل، والصياح والقرنفل، والساهرية، والأدقال، والمعجونات والزعفران، والخلوق وماء الخلوق، والكافور، وماء الكافور، والمثلثة الخزائنية، والبرمكية السلطانية، وسائر صنوف الأدهان من البنفسج والزئبق والبان إلا أنهن اجتنبن استعمال والترشنام.

والرجال لا يستعملون شيئًا من ذلك، والنساء يستعملن جميع طيب الظرفاء، والظرفاء لا يستعملون شيئًا من طيب النساء.

ومن زيهنَّ المعلوم في لبس الحلي المنظوم، لبس مخانق القرنفل المخمر، ومراسل الكافور والعنبر، والقلائد المفصلة، والمعاذات المخرمة، بشرابات الذهب المشبكة، والإبريسيمية المسلسلة، واتخاذ السبج اللطفا من المخروطة الخفاف، ومثل السبج الحلك الكوهر الكرك، والبلور النقي، وحب اللؤلؤ السري، والحب الأحمر، والكاربا الأصفر، وسائر صنوف الياقوت والجوهر، وينظمن بالحب، وصنوف

الجوهر كرازنهن وينقشن بالإبريسم والذهب عصائبهن، ويتخذن خواتيم المقرنة، والمناقير المطبقة بفصوص الياقوت الأحمر، والزمرد الأخضر، والأسمانجوني والأصفر، ولا يحسن بهن التجتم بالمينا والعقيق، والفضة، والحديد، والملوح، والفيروزج والبجازي، والمسانيح؛ وذلك من لبس الرجال والإماء، وليس من لبس متظرفات النساء، ولا يتخذن منها ما ضاق وعسر ولا ما جفا وكبر، وقد تطير بعض الظرفاء من هدية الخاتم؛ وزعموا أنه يدعوا إلى القطيعة، وتهاداه آخرون وأقاموه مقام التذكرة والوديعة؛ فأما الذين تطيروا منه فينشدون:

وما كان هذا الهجر من طول بغضة ... ولكن بعض المزاح للمرء قاتل
مزحت لحيني مرة بخواتيم ... لأخذه حلّت على النوازل
فصدت ولم تعلم على خيانة ... وطول صدود الخل للعقل سامل

وينشدون أيضًا:

إني مزحت ولم أعلم بخاتمه ... فكن منه ابتداء الهجر والغضب
قد كنت ما قال أهل الظرف أنكره ... وكان قولهم عندي من اللعب
إن الخواتيم فيها قطع وصلكم ... فقلت هذا لعمري غاية الكذب
حتى ابتليت فكان الحق قولهم ... أخذ الخواتيم فيه أكثر العطب

وأنشدني صديق لي في ضدّ ذلك:

يقول أناس في الخواتيم أنها ... تقطع أسباب الهوى وأقول
بأن خواتيم الملاح وصولة ... وخاتم من تهوى الملاح وصول

والعلة فيما كره الظرفاء وتطير منه الأدباء، من هدية التكة والخاتم حتى صار مستفيضًا في العالم، أن هذين وحديهما من جميع اللباس، أن يستظرفا فيستلبا

ويستحسنا فيستوهبا، وأن الواحد إذا أهدى إلى خليلة وأرسل إلى حبيبه بخاتمه أو تكته ففقد ذلك من يده أو حزته، بعثه باعث من غيرته على قطيعته وهجرته، فأما من يتلقى هدية آخائه بالقبول وينزلها منه بالمنزل الجليل ويحفظها كحفظه لبصره ويشفق عليها من الدهر وغيره، فهو آمن من المجانبة، مستريح من المعاتبة، وقد رأيناهم ربما أهدوا ذلك فيهدونه على سبيل البيع، ويأخذون منهم الشيء الطفيف اليسير كالدرهم الصغير والقطعة من البخور؛ فيخرج بهذا البيع عن حد الهدية، ويأمنون ما فيه من مكروه البلية، وقد بلغني أن أبا نواس دخل على خالد خيلويه فنظر في إصبعه إلى خاتم فقال: أرينيه فدفعه إليه، وكان علامة بينه وبين جارية يحبها فاستعمل واحدًا على مثاله، ثم بعث به إليها فأنكرت الفص فبعثت به إليه ولم تأتيه، فدخل على حياله فلما آره مثل بين يديه وأنشأ يقول:

تفديك روحي يا أبا جعفر ... جارية كالقمر الأزهر
تعلقتني وتعلقتها ... طفلين في المهد إلى المكبر
كنت إليها نتهادى الهوى ... بخاتم لي غير مستنكر
فأنكرته إذا رأت فصَّه ... فأدركتها غيرة المنكر
قالت لقد كان له خاتم ... أحمر بهدينا إلينا سرى
فاليوم قد علق غيري فقد ... أهدى له الخاتم لا أمتري
آمنت بالله وآياته ... أن أنا لم أهجره فليصبر
أو يأت بالحجة في تهمتي ... إيَّاه في خاتمه الأحمر
فأردده تردد وصلها أنها ... قرة عيني يا أبا جعفر

فأخرجه من إصبعه فدفعه إليه، فهذا دليل على إجازة تهادي الخواتيم وحفظها لأربابها، وشدة الغضب والغيرة عند ذهابها.

فأما الطعام فيعوبه أشد الأشياء على الظرفاء ضررًا، وهم من عيوبه أشد توقيًا وحذرًا؛ لتكاثف عيوبه وكثرة معيبه، وأنا أبين لك زيهم في ذلك وما استحسنوه في ذلك واستعملوه وما استقبحوه؛ فاجتنبوه إن شاء الله.